رحلة أول شرقي إلى أمركة

إلياس حنَّا الموصلي



رحلة أول شرقي إلى أمركة

تأليف
إلياس حنًّا الموصلي

تحقيق
أنطون الربَاط



رحلة أول شرقي إلى أمركة

إلياس حنَّا الموصلي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٥٦٢ ٤

المحتويات

المقدمة

الشرقيُّون مغرمون بالأسفار، أمر يشهد به التاريخ القديم والحديث، وتثبتهُ الرحلات العديدة التي ألَّفوها، واصفين بلادًا تكاد أن تكون مجهولة حتَّى في أيامنا؛ لكننا لم نكن نعرف أن أحدًا منهم ساح منذ قرنين ونَيِّف في أكثر البلاد الأمركيَّة وزار مدنها وولاتها وشعبها وتفقد أحوالها، ولم نعثر قَطُّ في المكاتب على ما يُستشف منهُ ذكر سياحة كهذه.

ففي أواسط أيَّار من سنة ١٩٠٥ بينما كنَّا نطالع المخطوطات المحفوظة في مطرانية السريان بحلب، استلفت نظرنا كتابٌ عربي عنوانهُ «سياحة الخوري إلياس الموصلي»، فاختلسنا أُوَيْقات الفراغ لقراءتهِ، وأخذَنا العجَبُ لمَّا رأَينا كاهنًا شرقيًّا قد زار أكثر الأنحاء الأمركيَّة في القسم الثاني من القرن السابع عشر، ووصفها وصفًا لا يخلو من اللذَّة؛ فعوَّلنا على تعريف الكتاب ونشر أهم فصوله. ولما عرضنا فكرنا على سيادة الحبر الجليل العلَّامة ديونيسيوس إفرام نقاشه مطران السريان الكاثوليك في الشهباء، أذن لنا باستنساخه ونشره، وكان قبولُه لطلبنا شاهدًا لنا جديدًا على ما ازدان بهِ من لطف الشمائل، وكرم الطباع الذكيَّة. وأثنى على هِمَّتنا كما اعتاد الثناء على كل عمل يئول إلى تعريف الشرق المسيحي ونشر تاريخِه. فليتنازل سيادتهُ ويتقبَّل خالصَ شكرنا.

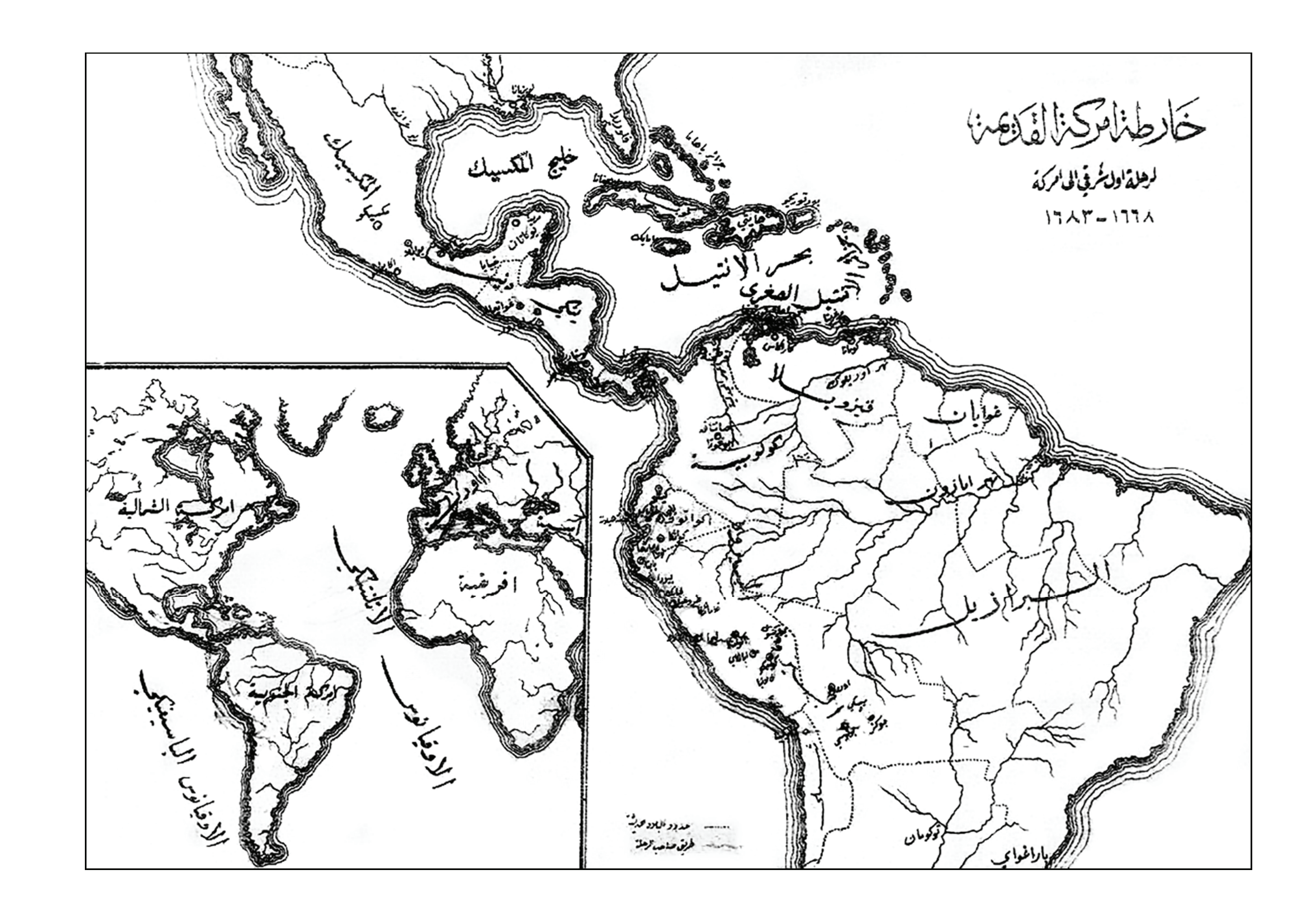
تعريف السائح: هو الخوري إلياس ابن القسيس حنًّا الموصلي الكلداني، من عائلة بيت عمون. ولقد نظرنا في الكتب المطبوعة والمخطوطة التي بين أيدينا فلم نصل حتَّى الآن إلى زيادة تعريف، وليس في رحلتهِ ما يُنْبِئُنا بشيء عنهُ خلا أنهُ ذَكَرَ ابن أخ لهُ اسمهُ يونان، أنجز في سنة ١٦٧٠ دروسهُ في عاصمة الْكَثْلَكَة، ومنها رجع إلى حلب.

الرحلة: في سنة ١٦٦٨ سافر الخوري إلياس الموصلي من بغداد لزيارة القدس الشريف، وبعد أن قضى مدَّة في حلب أبحر من إسكندرونة إلى البندقيَّة وإيطالية وفرنسة وإسبانية

والبرتغال وجزيرة صقليَّة، ثم عاد إلى إسبانية وركب البحر من قادس إلى أمركة، فمرَّ على جزائر كناري ووصل إلى قرطجنة في أمركة الجنوبية، ثم ساح في جهات باناما ومنها تتبَّع المدن والقرى والمناجم غربي أمركة الجنوبيَّة، فزار البلاد التي تدعى الآن كولومبية وخط الاستواء والبيرو وبوليفية إلى أعالي بلاد الحكومة الفضَّية وشيلي، ومن هذه البلاد عاد على الأعقاب إلى ليما من أعمال البيرو سنة ١٦٨٠، وهناك كتب القسم الأوَّل من رحلته. وما لبث أن سار إلى البلاد التي يسميها ينكي دنيا أي المكسيك وأمركة المتوسطة، وبعد مدَّة قضاها في مكسيكو قفل راجعًا فركب البحر وعاد إلى إسبانية فرومية، وتشرف بمقابلة الحبر الأعظم. قال في ختام رحلتِهِ: «فأنعم عليَّ البابا أينوسنسيوس الحادي عشر صاحب الذكر الصالح بوظائف لم أكن أهلًا لها، والحمد لله إلى الأبد، آمين.» ولم يذكر سبب رحلتِهِ جليًّا لكنهُ يُستشف من غضون كلامه أنهُ ذهب ليجمع حسنات المسيحيين لفائدة أهل جِلْدَتِه، والله أعلم.

صفات السائح: هو كاهن كلداني كاثوليكي ذو إيمان بسيط وتقوى صادقة، قليل الإلمام بالإنشاء والكتابة، لكنهُ يكتب ما يراهُ ببساطة ودقة وصدق، وقد تتبعنا سَفْرتهُ على خارطة كبيرة؛ فرأيناهُ لم يغفل بلدة ولم تَخُنْهُ ذاكرتهُ إلا نادرًا، لكن إنشاءه ركيك ووصفهُ خالٍ من التفنن، خلا بعض فصول وشذرات، ومع ذلك فقد قرأناهُ بلذَّة لما يذكر من الأمور الغريبة والتنقلات من مكان إلى مكان، ومن حال إلى حال. وفي كتابه أغلاط نحويَّة كثيرة أصلحنا أهمهَّا تاركين له سذاجة تراكيبه. ولا تخلو مطالعتهُ من فائدة يلتذ بها السوريون المقيمون في البلاد التي زارها، أعني وصف ما كانت عليه تلك البلاد ومقابلتها بما صارت إليه الآن بفضل التمدُّن والدين، وكلٌّ يعلم أن الشعوب التي كانت في أدنى درجات الهمجيَّة أصبحت بفضل المرسلين في أعالي سُلَّم الحضارة. وهناك فائدة أخرى للأمركيين أنفسهم؛ فإنَّ الرحلات وإن لم تندر لكنها مع ذلك لا تشفي الغليل. وقد قابلنا بين رحلتِه ورِحَل بعض معاصريهِ فوجدنا رحلتهُ أهلًا لأن تُنْظَم في مَصافِّها.

وصف الكتاب: هو كتاب مخطوط مجلد تجليدًا قديمًا، طول الوجه ٢١ سنتيمترًا في ١٥س عرضًا وفي كل وجه ٢١ سطرًا. وهو مكتوب بخط جَلِيٍّ غير متقَن يحتوي ٢٦٩ صفحة؛ فمن ١ إلى ١٠٠ رحلة المؤلف، يليها إلى صفحة ٢١٤ سبعة عشر فصلًا نقل فيها الرحالة تاريخ افتتاح أمركة، وأخبار ولاتها وشعوبها، وليس في هذا القسم الثاني كبيرُ فائدة، وسنكتفي بنشر الرحلة ونقل بعض شذرات من هذا القسم الثاني. ومن صفحة ٢١٤ إلى الأخير رحلة سعيد باشا سفير الدولة العليَّة إلى فرنسة في سنة ١١٣٢ هجرَّية وهي



خارطة امركة القديمة
لرحلة اول شرقي الى امركة
١٦٦٨-١٦٨٣
خليج المكسيك
مكسيكو
بحر الانتيل
الانتيل الصغري
غوايان
نهر امازون
البرازيل
توكومان
باراغواي
امركة الشمالية
امركة الجنوبية
افرقية
الاوقيانوس الاتلنتيكي
الاوقيانوس الباسيفيكي
حدود البلاد
طريق صاحب الرحلة

رحلة معروفة باللغة التركية والإفرنسية، لم نجد ترجمتها العربية في غير هذا الكتاب، كما أننا لا نعرف للكتاب نسخة أخرى في مكاتب أوروبَّة.

وليس الكتاب من خط المؤلف، وهو خِلْو من تاريخ يُنْبِئ بزمن نقله. أما عنوان الكتاب فهو: «صياحت» «كذا» خوري إلياس الموصلي، وهو كتاب — وهنا مُحِيَ الاسمُ وحُكَّ لكنَّا قرأنا «حنَّا بن دياب الماروني في حلب» ويليه: «جبرائيل بن يوسف قرمز في ٥ كانون الثاني سنة ١٨١٧.»

ديباجة الكتاب

الحمد لله الذي خلق البرايا بحكمتِهِ، واخترع الموجودات بأمرِهِ وكلمتِهِ، وصوَّر الإنسان على شِبْهِه ومِثاله، وسلَّطهُ على سائر المخلوقات بفضلِهِ وإنعامه، ونهاهُ عن ثمرٍ لا يأكلهُ لئلَّا يموتَ موتًا. فهذا المخلوق الضعيف لَمَّا خالف أمر خالقِهِ وأكل من المَنهِيِّ عنهُ تجرَّد من النعمة التي كان مُتَسَرْبِلًا بها، وصار مطرودًا مع ذرِّيته، من فِرْدَوْس عدن إلى أرض الشقاء والحزن، إلى أن تحنَّن عليه سبحانهُ وتعالى وشاء إعتاقهُ، فأرسل ابنهُ الحبيب الأقنوم الثاني وكلمتهُ الأزليَّة إلى بتول عذراء طاهرة وأشرف المخلوقات، وحلَّ في أحشائها حلولًا لا يُدرك، ولبس منها جسدًا كاملًا، وصار إنسانًا ما خلا الخطيئة، وتردَّد بين العالم، وصنع الآيات بشفاء المرضى وقيام الأموات. ثمَّ اختار لهُ تلاميذ أناسًا سُذَّجًا صيَّادين وشرع لهم نواميس وقوانين، وأمرهم أن يجولوا بكل العالم ويبشروا بكرازة الإنجيل الطاهر قائلًا لهم «متَّى ٣٨: ١٩»: «امضوا واكرزوا وعمدوا باسم الآب والابن والروح القدس فمن آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدن.» وقال لهم أيضًا «متَّى ١٨: ٥»: «فمن قبلكم فقد قبلني.» ووعدهم أيضًا عند صعودهِ أنهُ يرسل لهم الروح المعزي ليمنحهم نعمة وحكمة. فبعد صعوده وجلوسهِ عن يمين الأب أرسل لهم الروح البارقليط فحلَّ عليهم كألسنة نار فصاروا يتكلمون بسائر اللغات المختلفة فانتشروا في سائر أقطار المسكونة جائلين مبشرين بالإنجيل، وكانت آياتهم شاهدة لأقوالهم، فقومٌ منهم حصلت لهم بلاد الشرق، والبعض ذهبوا إلى الغرب، والبعض إلى القبلة، والبعض إلى الشمال، فثبت بهم قول داود النبي القائل عنهم «مز ١٨: ٥»: «في كل الأرض ظهرت بشارتهم وسُمعت أصواتهم في أقطار المسكونة، كانوا عائزين منضاقين مطرودين محقورين لابسين جلود الحملان.» «عبرانيين ١١: ٣٧»، وكانت أشعة أنوارهم تشرق وتنير تلك الأقاليم المظلمة، حتى إنهم بكرازتهم طهَّروا المسكونة من عبادة الأوثان، وأرجعوهم من الضلالة والطغيان، واختاروا لهم تلاميذَ وأخلافًا، وخوَّلوهم تلك المواهب،

وإنعام الروح القدس؛ لكي يتولَّوا من بعدهم الرئاسة والتدبير جيلًا بعد جيل متداومين إلى انقضاء العالمين.

فأمَّا الكنيسة المقدَّسة عروس السيد المسيح التي جُعل مار بطرس الصخرة رأسها ومدبرها من بعد صعودهِ المجيد، ومن بعدهِ للذين يخلفونهُ، فلم تزل تمتد أطنابها وتتوَّسع أكنافها حتى إنه لم يخلُ مكان وإقليم من أربعة أطراف المسكونة، إلَّا وتجد فيه كرازة الإنجيل وصحة الإيمان المستقيم بين طوائف مختلفة ولغات متفرِّقة. وأما اللعين الثلَّاب، عدو الخير والثواب، فلم يزَل مجتهدًا ومحترسًا على تزعزع ضمائر المؤمنين حتى يطغيهم ويطرحهم من أحضان الكنيسة أمهم، فنصب لهم شباكه وفخاخهُ وزرع في قلوب البعض منهم زوان الحسد والكبرياء والعصيان، حتى إن بعض طوائف الناس أنكروا الطاعة للكنيسة الرومانيَّة ولرئيسها ومدبرها، الذي هو الحبر الأعظم وراعي الرعاة العام، وجعلوا لهم رؤساء مختلفين مضادين بعضهم بعضًا حتى إنه تبارك وتعالى سلَّط عليهم أعداءَهم، فثبت قول السيد المسيح في إنجيله المقدس على لسان مار لوقا البشير في الفصل الثاني والخمسين مخاطبًا اليهود قائلًا:[١] إذا رأيتم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكل الأنبياء في ملكوت الله فها هو ذا يكون الأولون آخرين والآخرون أوَّلين، فلمَّا تفرَّقت الطوائف المذكورة من أحضان الكنيسة المقدسة، شاء السيد المسيح أن يدخل عوضهم أناسًا مختلفي الأجناس والطباع، غريبي الألسن واللغات، قاطنين في البراري والجبال، سالكين بعيشة وحشيَّة لا فرق بينهم وبين البهائم، معذَّبين ومنقادين بضلالة الشيطان، فقومٌ منهم عبدوا الحجارة، وطائفة عبدت الوحوش، وآخرون عبدوا الأشجار، وغيرهم كانوا يقدمون ذواتهم ذبيحة للشيطان اللعين، وكانوا ساكنين في الإقليم الرابع الذي كان مخفيًّا عن الأبصار، ومستورًا عن الأفكار، حتى إن القديس العظيم معلِّم الكنيسة المقدسة مار أغسطينوس كان يظن أنَّ هذا الإقليم هو غير مسكون من البشريين. فسبيلنا أن نبرهن ونبيِّن رجوع هذه الطوائف المذكورة إلى الإيمان الحقيقي، واحتضانهم للكنيسة المقدسة، حتى إن كثيرين منهم بعد دخولهم في الإيمان بالمسيح حُسِبُوا من جملة القديسين. وأما هذا الإقليم الذي قصدنا التكلم عنهُ فهو ممتد الطول والعرض، وهو أكبر من الثلاثة أقاليم الأخرى المعروفة بأسيا وأفريكا

[١] متى ٨: ١١ لا كما جاء خطأ، ولا عجب من تعيينه ٥٢ فصلًا في إنجيل القديس لوقا لأن تقسيم الفصول كان يختلف مع البلدان والأزمنة إلى أن انتشر التقسيم الروماني المعروف.

وأوروبا طولًا وعرضًا، وقد جعلوا لهُ اسمًا جديدًا وسمُّوهُ ميريكا مسلوبًا،[٢] وسوف نتكلَّم عنهُ في مكانهِ، ونحرر سبب كشفهِ وبيانه، ونرقم كل شيء في حينهِ وأوانهِ، ونستعين بالله على الزيادة والنقصان والسهو والنسيان؛ لأن ذلك يوجد في كل إنسان، والحمد لله دائمًا إلى الأبد.

[٢] بقوله إن: «اسم أمركة مسلوب» يريد أن الإقليم الرابع الذي وصفهُ كان حقُّهُ أن يُسَّمَى باسم مكتشفه كريستوف كولومب، قال في الصفحة ١٠٢ من هذا الكتاب، حيث يذكر تاريخ الاكتشاف: «وكان في رفقة المكتشفين رجل اسمهُ ميريكو Améric Vespuce من بلاد إيطالية من مدينة فلورنسة، وكان نوتيًّا في المركب ذا تدبير وعلمٍ وعقل. فشخَّص تلك الأرض وهنودها على ورقة «خارطة» وعرضها على ملك إسبانية فحينئذٍ سُمِّيت تلك الأرض ميريكا. وبالحقيقة كان الواجب أن تُدعى باسم كولون «كولومب»، لأنهُ كان المبتدئ والمجتهد في هذا الأمر، لكن بعد ما انتشر هذا التكني في أفواه الخلائق، وشاع على مسامع الناس جميعًا، لم يكن ممكنًا أن يتغير؛ فبقيت تسمَّى ميريكا.»

كتاب سياحة الخوري إيلياس ابن القسيس حنا الموصلي من عيلة بيت عموده الكلداني

يخبر به عن بلاد الهند المغرب، وسبب فتح تلك البلاد من السبنيوليين، وأيضًا عما نظر بعينهِ في مدَّة اثنتي عشرة سنة التي مكث فيها هناك في مملكة ينكي دنيا،[1] وفي بلاد البيروه،[2] وقد استخرج أيضًا من كتب تواريخ المعلمين المثبوتين بعض أخبار وترجمها من السبنيوليَّة إلى اللغة العربيَّة[3] بنظمهِ وترتيبه، في تاريخ سنة ألف وستمائة وثمانين للمسيح في بلد ليما في البيروه.

---

[1] ينكي دنيا كلمة تركية معناها: العالم الجديد. وقد أراد المؤلف بهذا الاسم بلاد المكسيك وضواحيها التي كانت تسمى إسبانية الجديدة، ومعلوم أن الثمر المعروف عند الإفرنج باسم néfles du Japon يسمَّى عندنا: ينكي دنيا، نسبةً إلى أصلهِ الأميركي.

[2] البيروه Pérou بلاد معروفة في أمركة الشمالية.

[3] قسم المؤلف رحلته إلى قسمين، ذكر في الأول سفره من بغداد إلى بلاد الفرنج، وبلاد أمركة، وعودته إلى أوروبة، وهذا ما عنينا الآن بنشره. وفي الثاني وصف في سبعة عشر فصلًا تاريخ اكتشافها وأخبار ملوكها القدماء والفاتحين لها من الإسبانيين، متتبعًا الأخبار نقلًا عن التواريخ الإسبانية، وسنلخص بالإيجاز مجموع أخباره. وقد كتب هذه الأخبار في ليما عاصمة البيرو، كما جاء في المتن سنة ١٦٨٠، لكنَّهُ أعاد فيها النظر، وزاد عليها ما جرى لهُ حتى عودته إلى أوروبة.

من بغداد إلى البندقية

فأقول — أنا الحقير في الكهنة: إني في تاريخ سنة ألف وستمائة وثمانية وستين للسيد المسيح خرجت من مدينة بغداد قاصدًا زيارة قبر المسيح في رفقة الطوبجي باشي المسمَّى ميخائيل آغا،[١] ثم إننا سرنا في درب القفر، ففي نصف الدرب خرج علينا لصوص مقدار مائة نفر، وصار بيننا حرب، فظفرنا بهم. وكان ذلك نهار عيد القيامة، ونحن كان عددنا اثني عشر نفسًا، لكن بقوة آلات الحرب من التفنك[٢] انتصرنا عليهم، ومن هناك أخذنا دربنا وسرنا إلى مدينة الشام، ومن الشام قصدت القدس الشريف، وتشرَّفتُ بزيارة تلك الأماكن المقدَّسة.

ثمَّ ذهبتُ إلى مدينة حلب، وبعد أيام انحدرت إلى ميناء البحر الذي يسمَّى إسكندرونة؛ فمن هناك ركبت في مركب إنكليزي، وسرنا قاصدين بلاد أوروبَّة، فجزنا إلى جزيرة قبرص،

---

[١] ننقل عن الصكوك والأوراق الخطية المحفوظة في مكتبتنا ما نعرفهُ عن هذا الرجل: هو مخائيل كوندوليو Condoleo طوبجي باشي أو مدير الطوبخانات الشاهانية في الشام وحلب وبغداد … إلخ. ولد في كريت، وسكن دمشق الشام، وكان يجول في البلدان بأمر الحكومة السنية ليتفقد أحوال الطوبخانات. وقد ذكره مرارًا المرسلون في رسائلهم لِما كان عليهِ من الثبات في الدين الكاثوليكي، والعيشة المسيحية. وكان لهم أعظم نصير بالمساعدة المادية والأدبيَّة، وكان كثير الثروة واسع الجاه، متقد الغيرة. وقد ذكره بالثناء مرارًا الأب يوحنا أميو Amieu رئيس الرسالة اليسوعية سنة ١٦٤٦، وألْمح إلى أسفاره إلى بغداد. وكان لمخائيل آغا أولاد وكلَ بهم الأب هيرونيموس كيرو Queyrot المرسل اليسوعي في دمشق الشام؛ ليتلقنوا منهُ التعليم المسيحي والعلوم الأدبيَّة، ويدرسوا اللغة اليونانية التي كان يلقِّنها عندئذ الأب كيرو المذكور لتلامذته العديدين من الروم الملكيين.

[٢] التفنك: كلمة تركية معناها: قصبة ثم جرى استعمالها باللغة التركية والعربية في حلب وما بين النهرين بمعنى البارودة أو البندقية، وهذا المعنى دارج في البلاد الداخلية إلى الآن.

وهناك زرت قبر القديس عازار وأختِهِ مريم ومرتا،[٣] ومن هذه الجزيرة رحلنا، وبعد أيام جزنا على جزيرة قريطش التي تسمَّى كريد، ومن هناك وصلنا إلى جزيرة زانطية، وهي في حكم البنادقة، مع جزيرتين أُخريين قريبتين منها تسميان: كورفو وسافولنية، وهما أيضًا في حكم البندقيَّة التي تسمَّى باللسان التركي وانادیك[٤] المعروفة في كل الدنيا، ومن هناك سرنا.

وبعد أيَّام عبرنا إلى ميناء البندقية المذكورة، وكانت عدَّة الأيَّام التي بقينا فيها على وجه البحر سبعين يومًا، من خروجنا من إسكندرونة إلى أن دخلنا إلى هذا الميناء،[٥] ثم أخرجونا من المركب وجعلونا في بيت التطهير الذي يسمَّى نازاريت[٦] باللسان الطلياني، فمكثنا هناك واحدًا وأربعين يومًا كالمرسوم، وهذا نازاريت هو خارج عن المدينة، وذلك عادة في بلاد النصارى؛ خوفًا من الطاعون، ففي تمام الواحد والأربعين يومًا أتى الحكيم

---

[٣] يعرف القرَّاء أن مكان قبر مريم المجدلية ومرتا ولعازر من المشاكل التاريخية التي لا يزال المؤرخون يتباحثون في حلِّها، فالفرنساويون وسكان إقليم بروفنسة خاصَّةً يذهبون إلى أنهم عاشوا بعد قيامة المخلص وماتوا في ضواحي مرسيلية، ودفنوا على قُلَّة يحجُّ إليها الزوَّار متبركين، وهي قُلَّة سنت بوم Sainte-Beaume. أمَّا سائر المؤرخين لاسيما المحدثين، فإنَّهم ينكرون حقيقة هذا الخبر، ولا يسلمون بهذه الذخائر، ومن البراهين التي يثق بها الفرنساويُّون تقليد يُعزونهُ إلى رهبان جزيرة قبرص جاء فيه أن مسيحي الشرق يعتقدون نقلًا عن تقليد قديم أنَّ لعازر ومرتا ومريم دُفنوا في ضواحي مرسيلية. وقد ذكر العلماء البولنديون في المجلد الخامس عشر بتاريخ ٢٢ تموز هذا الرأي استنادًا إلى رسالة بعث بها الأب يوسف بسُّون Besson اليسوعي بتاريخ ١٧ نيسان ١٦٦٠ إلى الأب دي غوردان رئيس اليسوعيين في إس Aix-en-Provence، لكننا نرى رحَّالتنا يذهب مذهبًا آخر يتناقلهُ اليوم أهل قبرص الروم وهم يكرِّمون قبر القديس لعازر في كنيستهم الكبرى، والله أعلم بالصواب.

[٤] وانادیك اسم البندقيَّة أو فينيسية باللغة التركيَّة.

[٥] كانت السفن في القرن السابع عشر تقطع رأسًا المسافة بين أساكل سوريَّة والبندقيَّة بثلاثين يومًا، وقد كانوا يبلغونها بخمسة عشر أو عشرين يومًا، إذا ساعدتهم الريح، لكنَّ العواصف والحاجة إلى الوقوف في موانئ جزائر البحر المتوسط كثيرًا ما كانت تؤخر وصولهم إلى شهرين أو أكثر.

[٦] نازاريت بالطلياني Lazaretto والفرنساوي Lazaret، المكان الذي فيه يقضي القادمون من البلاد الموبوءة حجرهم الصحيَّ مدَّة أربعين يومًا، والكلمة مشتقَّة من اسم لعازر Lazare وبهِ سُمِّيت في الأجيال المتوسطة مآوي المصابين بالبرص؛ فيكون معناها الأصلي مستشفى البرص Léproserie. وكان هذا المستشفى خارج البندقيَّة يُدعى سانت ماري دي نزارت Ste Marie de Nazareth ولهذا سماهُ المؤلف نازاريت لا لازاريت.

باشي لينظرنا هل بيننا أحد مريض، فبعد ذلك أعطونا دستورًا أن نخرج من نازاريت؛ فخرجنا ودخلنا إلى البلدة المذكورة، وبقيت هناك عشرين يومًا متنزهًا، وزرت كنائسهم، والغنى الذي نظرتهُ في كنيسة مار مرقس الإنجيلي[٧] هو شيء لا يوصف.

ثم من بعد تلك الأيام توجهت إلى مدينة رومية العظمى، وسكنتها ستة أشهر، وزرت الأماكن المقدَّسة، خصوصًا كنيسة مار بطرس الرسول الفريدة في المسكونة؛ لحسنها، وبعد ذلك خرجتُ قاصدًا بلاد فرنسة، فمرَّيت على أرض أمير يسمى كران دوكه توسكانا،[٨] وهو يسكن بلد فلورنسة، وهذا الأمير هو غني جدًّا، ذو مال وخزائن.

ومن فلورنسة انحدرت إلى ميناء البحر إلى بلدة تسمَّى ليغورنة من حكم هذا الأمير المذكور، وبعد أيام قليلة سافرت إلى بلدة جينوا ميناء البحر، وهي تحت حكم أمير يحكم على ذاتهِ، وهذا البلد شريف بالعمارات غني بالأموال.

[٧] هي الكنيسة الكاتدرائية الشهيرة في البندقيَّة.

[٨] وبالفرنسية Le Grand Duc de Toscane، وكان اسمهُ إذ ذاك الدوك فردينان الثاني «١٦٢١–١٦٩٠» وكان لأمراء توسكانا قناصل في حلب والأساكل في ذلك العهد.

سياحته في فرنسة

ومن هناك أيضًا سافرت في البحر فوصلت إلى ميناء بلد مرسيلية من حكم فرنسة، ثمَّ خرجنا إلى الأرض ومشينا إلى مدينة أوينيون التي هي تحت حكم سيدنا البابا،[1] وهذه البلدة هي في فرنسة، لكن ملوك فرنسة القدماء كانوا أهدوها مع بعض قرًى إلى كنيسة مار بطرس. ومن هناك ركبنا في سفينة على النهر، والخيل كانت تسحب السفينة ضد جريان الماء، فوصلنا إلى بلد ليون، وهذا البلد من أعظم بلاد فرنسة من بعد مدينة باريس، بلد ملك فرنسة.

[1] مدينة أفينيون وما حولها من القرى اشتراها البابا أكليمنفس السادس من حنة ملكة صقليَّة وكونتس بروفنسة سنة ١٣٤٨، وأقام فيها الأحبار الرومانيون من سنة ١٣٠٩ قبل مشتراها إلى سنة ١٣٧٧ ولبثت بعد ذلك تحت حكم الأحبار الرومانيين يدبر شئونها باسمهم نائب رسولي إلى زمن الثورة الأفرنسيَّة، فاغتصبها الثائرون سنة ١٧٨٩ وتملكوا عليها.

ثمَّ إني اجتمعتُ هناك مع رجل قديس يسمى موسيو بيكيت،[٢] فهذا الرجل الشريف كان سابقًا قنصلًا في حلب، وبعد رجوعهِ من حلب ارتسم أسقفًا على مدينة بغداد، وكانت وفاتهُ في العجم في بلد أمادان،[٣] وما لنا زمان لنتكلَّم عن فضائله وحسن سيرته.

ثم بعد أيَّام خرجتُ من ليون وسرت إلى مدينة باريس تخت ملك فرنسة، فدخلتها ورحتُ زرت الملك المنصور لويس فأكرمني، ثم إني زرت أخاهُ أمير أورليانوس Duc d'Orléans، وأهديته سيفًا وقدَّست لهُ في الكنيسة التي في سرايتهِ؛ فأكرمني زائد الإكرام، ثم رحت زرت أميرًا يسمَّى سانتينيان St Aignan، ودفعت لهُ مكتوبًا كان أعطاني إياه عمهُ البادري حنَّا الراهب الكبوجي[٤] الصالح الذكر الذي كان رئيسًا في حلب، فعمل لي عزًّا وإكرامًا جزيلًا؛ لأجل وصيَّة عمه البادري المذكور.

ثم إني نزلت في المكان وبقيت أتنزَّه في هذه البلدة العظيمة التي لا مثيل لها في كل الدنيا بحسنها وعدالة حكمها واستقامة شرعها، وزيادة محبة أهاليها للغرباء. وقد نظرت أمرًا يستوجب الذكر والمدح لفعلهم هذه الخيرات والإحسان، وذلك عدة نساء عددهنَّ

---

[٢] فرنسوا بيكيت أو بيكة François Picquet، ولد في ليون ١٢ نيسان ١٦٣٦ وجعل قنصلًا لدولة فرنسة وهولندة في حلب سنة ١٦٥٢ حيث عاش عيشة تقويَّة مثال الفضيلة والغيرة، وخدم الدين والدولة أحسن خدمة، واشتهر بمساعدته للكاثوليكيين، نخص بالذكر ما صنعه لإقامة أندراوس بطريركًا كاثوليكيًّا على السريان، وقد أجمع المرسلون والشعب على حبهِ وإكرامهِ؛ لما ازدان به من السجايا، وفي سنة ١٦٦٢ عاد إلى بلاده فأقام فيها ثماني سنوات، ثم سيم أسقفًا على سزاربوليس Césarople، ثم على بابل، ونائبًا رسوليًّا على العجم، واختارهُ لويس الرابع عشر سفيرًا لهُ لدى جلالة شاه العجم، فعاد إلى سوريَّة، ومنها ذهب إلى العجم حيث خدم الكنيسة والشرق المسيحي خدمة مشكورة، توفاه الله في مدينة همذان من أعمال العجم في ٢٦ آب سنة ١٦٨٥ «اطلب حياته باللغة الأفرنسيَّة Vie de Messire F. Picquet par Mgr. d'Antelmy évéque de Grasse اطلب أيضًا كتابنا الأفرنسي المعنون Documents inédits pour servier à l'Histoire du Christianisme en Orient, t. I. chez A. Picard et fils à Paris, Luzac et co. à Londres et hearrassowitz à Leipzig. صفحة ٩٦ و١٠٣ و١٠٤ ... إلخ.»

[٣] يريد همذان من حواضر العجم.

[٤] هو الأب يوحنَّا دي سنت إينيان Jean-Baptiste de S^t-Aignan الكبوشين، كان مرسلًا تقيًّا وغيورًا، خدم الكنيسة في رسالة حلب والموصل سنين طويلة باجتهاد لا يعرف الملل، وكتب معاريض لا تزال محفوظة في مكاتب باريس، وقد استنسخنا بعضها، ومن معاصريهِ الكبوشيين الغيورين: الأب سلفستروس دي سانت إبنيان، ونظنُّه أخاه. وقد وجدنا توقيعهما مرارًا في الرسائل المقدَّمة للكرسي الرسولي وللوزارة الأفرنسيَّة مع توقيع الأب نقولا بوارسون Poirresson رئيس اليسوعيين، ومع رؤساء الكرمليين الأب يوحنَّا بطرس والأب يوسف ملاك.

سبع عشرة امرأة من الأشراف، بعضهنَّ عذارى، وبعضهنَّ أرامل. أما العذارى فقد تزهدنَ عن الدنيا وتركنَ كل نقدهنَّ في الشركة المباركة، وتسمَّى هذه الشركة باللسان الفرنساوي: شاريته charité،[٥] أعني مجمع الخيرات، هذا قد أسَّسوهُ من القديم. وأيضًا الأرامل قد تركنَ مقتناهنَّ في هذه الشركة، وجميع هذه الأموال التي قد أوقفنها إلى هذا المجمع هي مؤمَّنة عند أناس الربح،[٦] وفي كل سنة تربح مليونين، أي عشرين كرَّة من المال، ثم تجتمع هؤلاء النساء المباركات في الجمعة مرَّة ويقسمنَ هذه الدراهم المذكورة على الفقراء والمحتاجين، وعلى الكنائس والأديرة، وأيضًا على المرضى والغرباء، وعلى الذين يكرزون بإيمان المسيح في بلاد الشرق، وأيضًا ينقدن لبعض بنات فقراء ويزوجنهنَّ من هذه الصدقة. ونظرت أشياء كثيرة واجبة للمدح والوصف في هذه المدينة العظيمة.

ثمَّ وفيما أنا هناك وإلَّا أقبل قاصد من عند السلطان محمد خان إلى الملك لويس، وهذا القاصد يسمَّى باللسان التركي والفارسي: إيلجي،[٧] فأنا رحت زرت هذا الإيلجي عدة مرار لأجل اللسان التركي، ثم طلب مني أن أبقى في باريس ولا أروح، فبقيت ثمانية أشهر.

[٥] هي جمعيَّة راهبات المحبَّة التي أسَّسها القديس منصور دي بول؛ فانتشرت في كل أنحاء المسكونة معطرة الغرب والشرق بعرف فضائلها وخدمتها للمساكين.

[٦] يريد المصارف.

[٧] هذا السفير العثماني هو سليمان آغا سفير السلطان الأعظم محمد الرابع، وصل إلى طولون في ٤ آب سنة ١٦٦٩ حاملًا رسائل جلالة السلطان الأعظم إلى الملك لويس الرابع عشر، فسار في موكب عظيم إلى باريس، وقابل المسيو دي لبون وزير الملك، ثم حظي بمقابلة الملك في حفلة عظيمة، وبقي في باريس، مدَّة كان فيها المسيو دارفيه d'Arvieux، رفيقًا لهُ، اطلب Vandal: Mis de Nointel p. 24 et Mémoires d' Arvieux t. IV.

إسبانية وإيطالية

ثمَّ بعده خرجت من هناك قاصدًا بلاد إسبانية، فجزت على بلد عظيم يسمى أورليانوس Orléans، ومن هناك رحت إلى مدينة تسمَّى بونراس،[1] ومن هناك إلى مدينة بواتيه، ومنها إلى مدينة تسمَّى بورديوس Bordeaux التي هي على شاطئ نهر كبير. وقد قطع الملك لويس المذكور الجبال وخلط البحرين في بعضهما، وأصبحت المراكب تسير بسهولة في هذا النهر المذكور من بحر الأوقيانوس إلى بحرين أرضيين.[2]

ومن هناك سافرت إلى إسبانية، وجزت على بلاد وقرًى لا تحصى، حتى بعد اثني عشر يومًا انتهيت إلى نهر، وهذا النهر هو الحد بين حكم فرنسة وإسبانية، وهناك قلعة تسمى سان جوان دي لوا St Jean de Lux من حكم فرنسة.

ثم جزنا النهر ووصلنا إلى قلعة من حكم إسبانية تسمى فونته إربيا Fuenterabia وجانبها بلدة صغيرة تسمى إيرون Irun، ومن هناك قصدت بلدة تسمَّى سان سبسطيان، وهي ميناء في البحر الغربي، ومن هناك سافرت في الأرض إلى مدريد تخت ملك إسبانية، وعبرت على بلدة تسمَّى بوركوس Burgos، ونظرت هناك ديرًا لرهبان مار أوغسطينوس،

---

[1] لا نعرف مدينة اسمها بونراسر بين بوردو وبواتيه إن لم يكن تصحيف تور Tours أو أمبواز Amboise أو بلوا Blois، فهذه المدن الثلاث على شاطئ نهر اللوار على طريق سائحنا من بوردو إلى بواتيه.

[2] يشير إلى الأشغال التي أُنجزت بأمر لويس الرابع عشر ليسهل على السفن العبور في نهر الجيروند Gironde، وقد جمع بين ذراعي النهر الممتدَّين حول الأرض المسماة «ما بين البحرين» Entre-deux-mers.

وكان في كنيستهم مذبح فيه صلبوت السيد المسيح الذي يسمى في اللسان السبنيولي كريستو ده بوركوس Cristo de Burgos،[٣] ويظهر منه عجائب كثيرة، وأيضًا نظرت هناك في دير الراهبات قبر ملك سيس الأرمني[٤] الذي كان يسمى أوانيسي تاكا، وكتابة قبره باللسان الأرمني، ثمَّ من هناك سافرت وجزنا على مدن وقرًى لا تحصى، حتى إني وصلت إلى مدريد تخت الملك، ففي ذلك الحين كانت تحكم الملكة امرأة الملك[٥] فيليبه الرابع؛ لأنه كان قد توفي الملك وخلف ابنًا صغيرًا يسمَّى كارلوا الثاني، ثم إني قدَّمت لها مكاتيب البابا أكلمندوس التاسع، فأمرتْ أن يعطوني ألف غرش[٦] من حاكم سيسيلية، وألف غرش من حاكم نابولي، ثم إني أخرجت من يدها أمرًا على تحصيل الدراهم.

فخرجت من مدريد قاصدًا أرض إيطالية. فدخلت إلى كورة أراكون Aragon ووصلت إلى بلدة تسمَّى سراكوزا Saragosse، حيث يتوَّج ملوك إسبانية، ويشرطون على أنفسهم حفظ القوانين الواجبة للحكم المحدود، مثل السابق القديم. حينئذ نظرت هناك أخا الملك يسمى دون خوان ده أوستريا، وهو أخ طبيعي لهذا الملك، ثم زرتهُ فأكرمني. ومن هناك سافرت قاصدًا البحر، فوصلت إلى مدينة تسمى برسلونا Barcelone، وهي من كورة كاتالونية Catalogne، وهي ميناء البحر الشرقي، فسافرت منها في البحر مع جكتريات[٧] ملك إسبانية، وبعد يومين عبرنا إلى ميناء يسمى كاتاكيس Cadaqués، حيث يخرج المرجان. وبقينا هناك خمسة وعشرين يومًا بسبب العواصف الكائنة في البحر في الكولفو ده ليون Colfe du Lion؛ لأن المجاز من هناك خطر عظيم.

ثم بعد زمان نهار الأحد قدسنا وأقلعنا وفتحنا الشراع وسافرنا. فبعد يوم وليلة جزنا ميناء طولون من حكم فرنسة، ومن هناك سافرت إلى رومية، فنظرت ابن أخي الشمَّاس يونان[٨] قد ختم قراءته في المدرسة وهو قاصد أن يخرج من رومية ويرجع إلى البلاد بعد

---

[٣] هو الصليب المنسوب إلى القديس نيقوديموس ويكرم في إسبانية من عهد قديم.

[٤] لا نعرف عن هذا الملك شيئًا.

[٥] هي مريم حنَّة النمساويَّة Marie-anne d'Autriche امرأة فيلبس الرابع المتوفى سنة ١٦٦٥، وكان لكارلوس الثاني ابنِه أربع سنوات فقط، فأقيمت أمهُ على إدارة المملكة لكن جوان Juan d'Autriche اغتصبها الإدارة مدَّة، ولمَّا مات عادت الملكة إلى الحكم إلى أن بلغ كارلوس أشدَّه.

[٦] كان الغرش عندئذٍ يعادل الدينار écu قيمةً.

[٧] جكتريه أو بالحري جكدرية كلمة تركية معناها السفن.

[٨] لا نعرف شيئًا عن هذا الشماس ونظنهُ درس في مدرسة البروباغندة.

أن جهزهُ المجمع المقدَّس من كتب وأشياء أُخر لازمة. ومن هناك وصلت إلى نابولي، وقدَّمت أمر الملكة إلى وزيرها الذي كان يحكم هناك، الذي يقال له وي الري،[٩] فقرأه وجاوبني قائلًا: اذهب إلى سيسيلية، وحصل الألف غرش، فسافرت إلى جزيرة سيسيلية، ودخلت مدينة تسمى باليرمو Palerme، حيث وزير الملكة الحاكم الذي يقال لهُ أيضًا: وي الري. فعرضت عليه الأمر أن يعطيني الألف غرش، فوعدني أنهُ يعطيني إيَّاها، وبعد شهرين قال لي: لا أقدر أعطيك. ثم إني أرسلت من هناك الشماس يونان ابن أخي إلى حلب. وأنا لمَّا نظرت أن ليس لي رجاء من هذا القاسي القلب أن يعطيني الألف غرش بعد تعب القلب الذي حصل لي في سفرتي رجعتُ إلى نابولي لأحصل الألف غرش الأخرى من الوزير الأوَّل، مثل ما كان وعدني، فهذا أيضًا جاوبني قائلًا: ما أعطى حاكم سيسيلية الألف غرش ولا أنا أعطي شيئًا ولا عندي دراهم.

ثم إني رجعتُ مرَّة أخرى إلى إسبانية خائب الرجاء حتى أرجع الأمر إلى الملكة، فرجعت إلى رومية ومنها إلى ميناء ليغورنة، وركبت في البحر، ووصلت إلى مدينة برسلونة المذكورة، ومنها جئت إلى سراكوزا، ورأيت هناك أخا الملك المذكور فأخبرتهُ بما جرى لي من الأتعاب والخسائر؛ لأني صرفت أربعمائة غرش في الرواح والمجيء، فشقَّ ذلك عليهِ، وكان صحبتي واحد رومي من أولاد حلب يخدمني اسمهُ يوسف الفتَّال. ثم إني رجعت إلى مدريد وعرضت حالي على الملكة فصعب عليها ذلك بسبب عدم قبول أمرها، ثم بعد إني أرجعت لها أمرها خرجت من مدريد قاصدًا بلاد البرتكال. وفي ذلك الزمان كان ملكهم موجودًا في جزيرة تسمى إيزلا ترسيرا Isola Terceira، وكان هناك مسجونًا، وفعلوا به ذلك لقلَّة عقلهِ وعدم نسلهِ، وبعد أن ثبتت معهُ امرأتهُ ثلاث سنين، وأما هذه الشقيَّة فكانت فرنساويَّة وزوجها الأوَّل كان يسمى الملك دون الونصو Alphonse VI، ولكن هذا زوجها الثاني كان يسمى دون بيدروا Don Pedro، فمع أنه جلس في مكانه لكن لم يسمُّوهُ ملكًا لكن أميرًا؛ بسبب أن أخاه كان باقيًا في الحياة. وبعد أن تزوجها رُزق بنتًا، ثم إني ذهبت إلى عند هذا الأمير، وتكلَّمت معهُ، وبقيت في هذا البلد سبعة أشهر، وزرت جميع كنائسها وديورتها. وأمَّا سكَّان هذه البلدة فمنهم أُناس أجواد كرماء، وكاثوليكيُّو الإيمان. وأيضًا يوجد هناك

[٩] وبالإسبانيَّة Vey El Rey، أي: نائب الملك Vice-Roi.

نصارى جدد، وهم من ملَّة اليهود المتنصرين، وهم معلومون عند الكل، وما يتزوَّجون من النصارى القدماء، والبعض منهم بالحقيقة ناكرو دين المسيح، فلمَّا يتحقَّقون أمرهم أنهم كذلك يحكم عليهم ديوان الإيمان بالحريق. وأمَّا هذه المدينة ليزبونا Lisbonne، فهي ميناء البحر، ومنها تسافر المراكب إلى هند الشرق، إلى بلاد كووا التي من حكم البرتكال.

أهبة السفر إلى أمركة

وبعد أن بقيت هناك سبعة أشهر رجعت إلى بلدة مدريد المذكورة، وسكنت في دار أمير يسمى الدوكة ده أوبرو، وصار لي من هذا الرجل ومن بقيَّة الأصحاب إكرام زائد. وإحدى السيدات تسمى ميركيزا ده لوزوبلس التي ربَّت الملك عملت لي إكرامًا عظيمًا، وطلبت من الملك دستورًا أن أقدس له، فكان معي شماس رومي، وكنت علَّمتهُ يخدم قدَّاسي، فدخلت كنيسة الملك وقدَّست أمامهُ وأمام والدته، ثم بعد ذلك أمرت الملكة مربية الملك أن تسألني أي شيء أطلب حتى تهبني. فأخذت منها مهلة ورحت شاورت بعض الأصحاب، فأشاروا عليَّ أن أطلب إجازةً وأمرًا قاطعًا حتى أتوجه إلى بلاد هند الغرب،[1] فصعب عليَّ هذا الأمر، لكن جعلت الحملة على الله واتكلت عليه، وطلبت الأمر؛ لأنه لا يقدر غريب أن يجوز إلى بلاد الهند إن لم يكن معه أمر من الملك، وكان في ذلك الزمان النونسيو الذي هو رسول البابا في مدريد يسمى الكردينال ماريسكوتي، وهذا المبارك ساعدني بنصائح.

ثم إني أخرجت الأمر من الملكة؛ ففرح بعض الأصدقاء لهذه النعمة التي أنعمت بها عليَّ، فأمَّا الأمير الذي كنت نازلًا عندهُ في الدار فجهزني بكل ما أعتازهُ في السفر، وأعطاني مكاتيب وصية إلى بعض أصدقائه، والأمر الذي أخرجتهُ من الملكة كان وصيتها عليَّ إلى الوزير، وإلى المطارنة والأساقفة والحكام في كل بلاد الهند على مساعدتي.

ثم إني تقويت بالرب واعتصمت باسم والدته مريم العذراء، وخرجت من مدريد قاصدًا مدينة قادس Cadix، التي هي ميناء على البحر المحيط، فمن بعد سفر اثني عشر

[1] كانوا يسمون بلاد أمركة: الهند الغربية، ليفرقوها عن الهند الشرقيَّة.

يومًا في البر دخلت إليها فرأيت مراكب الهند مهيأة ومستعدة للسفر، وفي هذه الأسكلة يقام ديوان مدبري المملكة، فقدمت أمر الملكة، فسجلوه لي وأعطوني أمرًا ثانيًا بموجبه.

ولما كان اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة ألف وستمائة وخمس وسبعين من المسيح قدمت أمري مع المكاتيب إلى جنرال الغلايين،[٢] دون نيقلاوس ده كوردووا، فحبَّني واستقبلني بكرامة عظيمة، وأعطاني كامره أي أوضة في مركبة، فأدخلت حوائجي في الأوضة وقفلت الباب. وهذا الغليون هو الرئيس على سائر الغلايين. وقد أخذت معي من قادس شماسًا من طائفة الروم، مولودًا في أتينس؛ لأني ما وجدت أحدًا من ملتي ومن أولاد بلادي. فصار عندي ندم عظيم بسبب أني كنت سرحت ابن أخي الشماس يونان إلى بلاد الشرق، ولكن ما عادت الندامة تفيد، فنصحني البعض من الأصحاب قائلين لي: إن هذا الرومي عند وصولك إلى بلاد الهند سوف يتمرد عليك ويخرج من عندك. فعند وصولي جرى لي كقولهم.

ثم إننا في ذلك اليوم المذكور قلعنا ونصبنا الأقلاع وسرحنا، وكان عدد الغلايين ستة عشر غليونًا، فتودَّعوا من الأسكلة بضرب المدافع، ودق الأبواق، ونصبوا الأعلام والرايات.

[٢] جمع غليون، أي: السفن Galion.

السفر إلى أمركة الجنوبية

سافرنا، وكان المسافرون قوم منهم في فرح، وأناس في حزن على فرقة أهاليهم. وهذه رفقة المراكب تسافر كل ثلاث سنين مرة واحدة إلى بلاد الهند التي تسمى البيروه، والتي تبعد ألفًا وخمسمائة فرسخ داخل بلاد ينكي دنيا؛ لكي يحضروا من هناك خزنة الملك، وأيضًا التجار يوسقون الغلايين من كل أجناس البضائع ويبيعونها في تلك البلاد، ولا يدعون إنسانًا غريبًا عن الجنس السبنيولي يرافقهم، لا تاجرًا ولا كاهنًا، إن لم يكن معهُ أمر من الملك مثل ما ذكرنا سابقًا. وهذه هي إلى اليوم قوانين ونواميس موضوعة من أيام كارلس الخامس من ملوك إسبانية وبلاد المجر، حيث على عهدهِ فتحوا بلاد الهند. وهذه الغلايين تعود بالغنائم، الفضة والذهب بقيمة عشرين أو خمسة وعشرين مليونًا، وكل مليون قدرهُ عشر كرات. وبعد خروجنا من قادس بثلاثة أيام حدث اضطراب عظيم في البحر، ودام ذلك علينا ثلاث ساعات، فكان برفقتنا رجل شريف يسمى دون نيقلاوس أنيفانته، وكيل الملك، فمن كثرة الخوف الذي دخل عليه مات في تلك الليلة، فربطوا برجليهِ جرارًا مملوءة ماء وحدفوهُ بالبحر؛ لكي يغطس إلى أسفل، ولا يعوم على وجه الماء، وتأكله الحيتان، فلما حدفوه ضربوا له ثلاثة مدافع. وهذا المذكور كان ذاهبًا مقدم ديوان كيتو Quito،[١] ومن بعد ثلاثة أيام أشرفنا على جزيرة اسمها كنارياس Canaries،[٢] من حكم إسبانية، ولا زلنا مسافرين والأرياح تلعب بنا ونحن في نصف الدرب، فصادفنا مركبًا إنكليزيًّا موسوقًا من العبيد السود عددهم سبعمائة نفس، قد جاءوا بهم من بلاد برازيل Brésil، من حكم البورتكال حتى يبيعوهم في بعض جزائر الهند.

---

[١] عاصمة بلاد الأكواتور أو خط الاستواء.

[٢] هي الجزائر الخالدات غربي أفريقية الشمالية قبال بلاد مراكش.

الوصول إلى أمركة

وفي اليوم الرابع[1] كشفنا على أرض من أراضي الهند، ووصلنا إلى مكان أي ناحية في البحر، فتأمل النواخذة[2] في الماء، فلما نظروا لونها متغيرًا علموا أنها ماء النهر، وعرفوا في أي مكان وصلوا؛ لأنه ينحدر من تلك الأرض نهر كبير واسع مقدار أربعين فرسخًا، ولانحداره وعزم قوته الشديدة يشق البحر ويجوز فيه نحو أربعين فرسخًا، ثم إلى هذا الحد ينخلط ماؤه في البحر، ولا يوجد مثلهُ نهر في الدنيا،[3] ثم من هناك كشفنا على أرض تسمى كراكس Caracas،[4] ومن هناك جزنا في جزيرة تسمى مركاريتا Marguerite،[5] من حكم إسبانية، وذكروا لنا عن الجزيرة أنها من مدة عشرين سنة كان الغطاسون يغطسون في هذا البحر قرب الجزيرة، وكانوا يخرجون صفد اللؤلؤ البليغ في الكبر، والشريف باللون. فذات يوم بينما كانوا يستخرجونهُ نذروا على أنفسهم أن أول شيء يخرجونهُ في ذلك النهار من اللؤلؤ يدفعونهُ إلى كنيسة العذراء، فلما نظروا أنهم أخرجوا لؤلؤًا كبيرًا غالي الثمن ندموا بذاتهم

[1] اليوم الرابع بعد التقائهم بالمركب الإنكليزي، ولعله تصحيف اليوم الرابع والأربعين بعد سفرهم من قادس.

[2] نواخذة كلمة فارسية مفردها: ناخذاة. ومعناها: ملَّاك السفينة أو رئيسها.

[3] هو نهر الأورينوك Orénoque العظيم في شمالي أمركة الجنوبية لكنه ليس بأعظم من نهر الأمازون.

[4] كاراكاس عاصمة بلاد الفنيزويلا Vénézuéla.

[5] مرغريتا جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل الصغيرة Petites Antilles تجاه كاراكاس، وهي شهيرة بصيد اللؤلؤ، ولما حل المكتشفون في ضواحيها في أواخر سنة ١٤٩٩ اشتروا من سكَّانها اللؤلؤ بالكيل مقايضين عليه بإبرٍ ودبابيس، وقد سمي جوارها خليج اللؤلؤ Las Perlas.

وقالوا: إن غدًا يكون على اسم العذراء. وأيضًا غطسوا ثاني يوم وأخرجوا اللؤلؤ فوجدوهُ أحسن وأبلغ من الأول، فطمعوا كذلك وقالوا: نهار غدٍ نفي نذرنا إلى العذراء. ثم في اليوم الرابع انحدر الغطاسون كعادتهم ليخرجوا اللؤلؤ فما وجدوا شيئًا أبدًا، وإلى يومنا هذا ما بقيوا يجدون لؤلؤًا في ذلك البحر.

السير حذاء شطوط فنيزويلا

فنرجع إلى قولنا، فمن هناك سافرنا ووصلنا إلى ميناء يسمى كومانا Cumana، من حكم إسبانية، فمن هذا الميناء يقدرون أن يمشوا في البر إلى كل بلاد البيروه، لكن المانع هو خوفهم من الجنود الجلالية،[1] ومن الجبال العالية والأنهر والأحراش والوحوش الضارية؛ فلأجل ذلك يسافرون في البحر. فرسينا في ذلك الميناء واكتفينا من الفواكه والهدايا التي أهداها لنا حاكم البلد. ومن بعد يومين سافرنا من تلك الأسكلة وجزنا على جزيرة تسمى كوراصون Curaçao، وهي من حكم الأولنديفر «الهولنديين». ثم إن حاكم هذه الجزيرة أيضًا أرسل لنا شختورًا ملآنًا فواكه، وبوزه لأجل المشروب، وضرب لنا من القلعة سبعة مدافع، ونحن أيضًا ردينا عليهم السلام بسبعة مدافع. ومن هناك سرنا وجزنا على جزيرة تسمى ترتوكا Tortuga، وهذه الجزيرة غير مسكونة؛ لأن فيها زلاحف كبيرة أزيد من ذراعين طولًا وعرضًا، والمراكب تروح وتتصيد من هذه الزلاحف وتملِّحها لأجل زوادة،[2] وفي هذه الجزيرة وجدنا مركبًا صغيرًا فرنساويًّا، وكان في ذلك الزمان حرب بين إسبانية وفرنسة، ونحن كنا سبعة عشر غليونًا. ولما رأى الفرنساوية أننا أحطنا بهم هربوا للبر في الجزيرة، وتركوا المركب فارغًا. فأخذت مراكبنا المركب، فرأيناهُ موسوقًا زلاحف مملحة. وأما الناس الذين هربوا وخلوا المركب كان لهم مركب آخر في جانب آخر من الجزيرة نحو تسعة أميال، فراحوا واجتمعوا بذلك المركب، فمن بعد شهرين حصنوا لهم مركبًا بعدة من الرجال والآلات الحربية لينتقموا من أعدائهم.

---

[1] الجلالية لعلَّها كلمة Guérillas ومعناها العصائب التي تقاتل قتالًا غير قانوني.

[2] سميت هكذا لوفرة الزلاحف التي كانت تغطي أرضها عندما بلغها المكتشفون سنة ١٥٠٣.

وصف قرطجنة

ومن هناك سافرنا إلى بلدة تسمى كرتاخينا «قرطجنة الجديدة Cartagène»،[1] وكان السفر الذي سافرناهُ سعيدًا لأننا بخمسة وخمسين يومًا دخلنا إلى هذه الأسكلة حيث ترسي الغلايين، وكان وصولنا إلى هذه البلدة يوم مبارك، وهو يوم خميس الفصح المقدس. ثم خرجنا ثاني يوم للبر نهار جمعة الآلام، واسترحنا من أتعابنا، وأيضًا تشرفنا بالزياحات المقامة يومئذٍ لآلام المسيح. وفي هذه البلدة قوم أكابر أغنياء جدًّا، وديوان من ديوانات الملك وكنائس وقسوس وديورة رهبان وراهبات. وسكان هذه البلدة كاثوليكيون محبو الغرباء، وهم إسبنيوليون حقيقيون. وكان حاكم هذه البلدة رفيقنا في المراكب، وقد عمل لي عزًّا عظيمًا وإكرامًا جزيلًا، فرسينا في هذه البلدة أربعين يومًا حتى جاءت المكاتيب مع الأولاق[2] من بلدة ليما التي هي تخت لوزير الملك وللتجار الأغنياء الذين من البيروه، فخرجنا من

[1] قرطجنة: بلدة عظيمة بسكانها وتجارتها؛ لأنها تعتبر مرفأ أمركة الجنوبية إليها تأتي السفن التجارية، ومنها تقلع محملة كنوزًا وبضائع، وقد كانت عندئذٍ سوقًا عامًّا للرق يأتي النخاسون بالعبيد المساكين من الكونغو والغويان وغيرهما من بلاد أفريقية فيبيعونهم بيع المواشي؛ ولذلك سعى المرسلون أن يخففوا آلام العبيد، ويفكوا قيودهم ما استطاعوا، وينيروا عقولهم بنور الإنجيل؛ ليكون صليب المسيح عزاء لهم ورجاء في حالتهم التعيسة. وقد اشتهر بين ذوي الغيرة المسيحية على هؤلاء المنكودي الحظ القديس العظيم بطرس كلافر اليسوعي، الذي قضى نحوًا من نصف قرن بخدمة العبيد في قرطجنة؛ فكان لهم أبًا حنونًا اكتسب منهم إلى المسيح عددًا لا يحصى، وقد عمد بيده ثلاثمائة ألف ونيفًا، ومات سنة ١٦٥٤.

[2] أولاق: كلمة تركية معناها السعاة.

هذه الأسكلة وسافرنا إلى أسكلة تسمى بورتو بلُّو،[٣] وفي هذه الأسكلة يصير البيع والشراء لما يرجع تجار البيروه من البحر القبلي، فبقينا نستناهم نحو شهرين حتى وصلوا إلى عندنا وأحضروا معهم من الفضة والذهب خمسة وعشرين لكًّا،[٤] وصار البيع والشراء بين التجار والهنود وبين التجار السبنيولية أربعين يومًا؛ ففي ذلك الحين جاء المركب الفرنساوي السابق ذكرهُ وقنصر،[٥] وفي ليلة من الليالي طفَّ على الشختورات الإسبنيولية، وأخذ المال الذي كان فيها، وكانت عدة المال مائتي ألف غرش، فالصبح لما سمع أصحاب مراكب الحرب خرجوا وراءهم فما صادفوهم، فراحت على من راحت وراح الصيادون الفرنساوية المذكورون وهم يزمرون ويدقون بالدفوف. ويوجد في هذه الأسكلة التي تسمى بورتو بلو شيء من جنس الدبابات أصغر من البرغوث، ويُسمى في اللسان الهندي بنكثوا،[٦] فهذه الدبيبة إذا تغافل عنها الإنسان تجوز في جسده، ومن بعد أربعة أو خمسة أيام تكبر وتصير قدر الحمصة فيلتزمون أن يكشفوا بصنعة، ويخرجوها بإبرة من غير أن يفقئوها ويحطونها على بصة نار، فتطق مثل الفرقوعة. وإذا ما أخرجوها بصنعة وفقئوها فتقع ميتة على لحم الإنسان فيتورَّم ويفقع ويموت ذلك الإنسان. وأيضًا في ذلك البلد يحصل خفاش الليل، كبير يجيء إلى الإنسان وهو نائم، ويبدأ يفصده ويمص دمه ويستفرغهُ، وبجناحِهِ يهوي على ذلك الإنسان ليطيب لهُ النوم، ولا يزال يفصد ويتقيأ الدم إلى أن

---

[٣] بورتو بلُّو وقد كتبها سائحنا مرارًا بورتو ويلو على اللفظ السبنيولي Porto Belo وتسمى أيضًا St. Philippe de Porto Belo بلدة صغيرة على برزخ باناما بالقرب من نهر شاغر Chagre، وهناك يهتمون الآن بثقب ترعة باناما لتمر السفن من بحر إلى بحر.

[٤] اللك كناية عن عشرة ملايين.

[٥] قنصر: هي كلمة ancrer أي: أرسى، وردت في رسائل بعض معاصري السائح.

[٦] نظنه يريد الدبيبة المعروفة عند علماء الطبيعيات باسم Sarcopsylla penetrans، فإن وصفها عندهم يطابق ما جاء به الكاتب اطلب Traité de Parasitologie du Dr. Moniez p. 612، وقد وصف دون دولوا dom d'Ulloa مرضًا جلديًّا شبيهًا سماه الحية الصغيرة Culebrilla، يصيب سكان باناما، قال: إنه دملة تداوى بالشق بإخراج الجلد البالي فتيلًا يشابه الحية. وزاد إن سكَّان قرطجنة وبورتو بلو يذهبون إنه بالحقيقة حية أو دبيبة صغيرة. وقد ثبت الآن أنه دبيبة تعرف باسم Filaria Medinensis (ibid. p. 319).

يفيق الإنسان نصف غشيان من كثرة الدم الذي خرج منه،[٧] وقاسينا في تلك البلدة من الحر والمطر مدة أربعين يومًا. والتجار يبيعون بضائعهم، فلمَّا أدخلوا خزينة الملك إلى هذه الأسكلة أرسلني الجنرال حتى أتفرَّج عليها، فرأيت شيئًا لا يحصى من الفضة والذهب.

[٧] هو وصف الخفَّاش المسمى Vampire.

تجارة باناما

ومن بعد ذلك قصدتُ أن أركب سفينة وأتوجه إلى بلاد صانتافه[1] التي يخرجون منها هناك حجارة الزمرد؛ لأن من بلد كرتاخينا «قرطجنة Cartagène» يسافرون في النهر وهم صاعدون إلى هذه الأرض المذكورة، معادن الزمرد، لكن جنرال الغلايين نصحني ومنعني عن ذلك قائلًا: إن في تلك الأرض يوجد بعض حيات مسمومة تقتل الناس، وأيضًا المسافة بعيدة، فأنا أشور عليك بالمحبة الإلهية أن لا تروح وتضيع وتموت في تلك البلاد. ثم إني طاوعت شوره وقصرتُ عن الرواح، ثم من بعد أربعين يومًا طلعنا من بلد كرتاخينا وسافرنا صحبة الغلايين. ومن بعد عشرين يومًا وصلنا إلى ميناء يسمى سان فيليه ده بورتو بلو، فلما وصلنا إلى هناك ورسينا في هذا الميناء مستنظرين المراكب التي تجيء من بلاد البيروه في البحر القبلي الذي يسمى مارسوريجوا إلى أسكلة تسمى باناما، وفيها حاكم رئيس عسكر وأسقف وديورة رهبان وراهبات. وهذه البلدة لطيفة جدًّا. ومن هذه الأسكلة المذكورة إلى أسكلة بورتو بلو ثمانية عشر فرسخًا، في جبال وحرش ما بين البحرين، بحر القبلة، وبحر الشمال. وهذه الأرض دروبها صعبة نذكرها فيما بعد. فنزَّلوا خزينة الملك محملة على بغال إلى بورتو بلو، وأيضًا أحمال التجار، والمسافة دون ثلاثة أيام، ويأخذون الكروة ثلاثين غرشًا على كل بغل، ويصير موسم التجار أربعين يومًا، ويتسوقون البضائع التي مع الغلايين، فخزنة الملك كان عددها خمسة وعشرين مليونًا، وكل مليون عشر كرات، وكل كرة مائة ألف غرش، فأما هذه الخزنة ما تجيء كلها إلى إسبانية، بل يقسمونها

---

[1] صانتافه Santa Fé de Bogota عاصمة بلاد غرناطة الجديدة، وهي الآن عاصمة كولمبية، والنهر المذكور هو نهر Magdalena.

علائف[٢] على أرباب الوظائف، وإلى الجنود الحارسين الجزائر والقلاع الكائنة في بلاد الهند المنسوبة إلى بلاد البيروه، ومن هذه الخزينة يصرفون أيضًا على الغلايين المنسوبة إلى الملك وعلى جنودهم. وهذا الميناء هو أرض حامية جدًّا وكثيرة الأمراض، ففي تلك السنة ما صار مرض عظيم، فلكن مات من الطرفين مقدار ألف نفس، والباقي مرضوا، وأنا مرضت لكن الرب شفاني بواسطة ملكة القديسين مريم العذراء ومار إلياس الحي. ثم من بعد ذلك باع تجار إسبانية بضائعهم إلى تجار البيروه وتسلموا الفضة والذهب؛ فرجع تجار البيروه إلى سبيلهم والغلايين أخذوا الفضة والذهب وبعض من البضائع مثل صوف التفتيك، يسموهُ بيكونيا،[٣] وأيضًا كاكاو الذي يشبه القهوة بالرائحة والطعم، لكن زائد الدسم،[٤] فيخرجون من هذه الأسكلة راجعين إلى كرتاخينا، ومن كرتاخينا يسافرون إلى جزيرة لاوانا،[٥] وهي جزيرة حصينة وفيما بعد نذكرها.

---

[٢] العلائف: جمع علوفة، الرواتب والأجور.

[٣] صوف التفتيك «بيكونيا» لعلهُ يريد النبات المعروف باسم بنيونيا أو بيكونيا وهو أنواع، ومنه نوع قطني.

[٤] سيأتي وصفه.

[٥] يريد مدينة لاهافانا La Havana من أعمال جزيرة كوبا Cuba.

السفر إلى باناما

فأما أنا الحقير فقصدتُ مرافقة هؤلاء التجار للبيروه، فاستكريتُ ثلاثة بغال بتسعين غرشًا، أما الحاكم فما أراد يخليني أن أروح وحدي لسبب الجبال التي يوجد فيها نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فلما يمر عليه رجل أبيض عابر الطريق يرتفع من الأرض مثل عود السهام ويدقر «يمس» الإنسان، ولا يشفى المصاب بهذه الدقرة إلى الموت، لكنَّهُ لا يدقر الهنود العبيد ولا يضرهم. فلما حكى لي الحاكم بهذا الشيء قلتُ له: لا أصدق إن لم أرَ بعيني. فقام أرسل معي خادمه — وهو أحمر — حتى يريني ذلك الحشيش، فلما وصلنا إلى الموضع الذي يوجد فيه هذا الحشيش جاء الخادم إلى جانب فرسي واختفى، فما رأيت هذا الحشيش وهو بعيد عشرة أذرع عن الدرب إلا وارتفع وامتد أن يجيء يلدغني فخرج الأحمر وصاح عليه «دونك يا كلب»، فلما صاح عليه وقع على الأرض، وأنا شاهدتُ ذلك بعيني،[1] وأيضًا في هذا الجبل رأيت أغصانًا ساوية معدلة من غير ورق، وفي كل غصن ثلاثة جوزات مثل القطن، فإذا انفتح جانب الجوزة رأيت داخلها حمامة بيضاء بجناحها كاملة ورجليها ومنقارها أحمر وعيونها سود، فهذه يسمونها زهرة الروح القدس، وكثير من حكام السبنيولية أرادوا أن يحضروا منها ويزرعوها في إسبانية فما قدروا،[2] فمن بعد خروجنا من بورتو بلو عبرنا في نهر صغير قليل الماء لكنه محجر،

---

[1] نستغرب هذا الوصف، فقد طالعنا رحلات المعاصرين ونقرنا في كتب العلم فلم نرَ إثباتًا لما ادعى صاحبنا أنه رآه مرأى العين، وقد يكون هناك خزعبلة أراد بها الحاكم أن يمنع السائح عن السفر، اللهمَّ إن لم نأوِّل كلامه فنعزوه إلى وصف الثمرة المعروفة باسم Hura crepitans التي إذا ما نضجت تفرقعت بدويٍّ كدويِّ إطلاق بارودة.

[2] لعلَّها الزهرة المسمَّاة Polygala مع المبالغة في وصفها.

فمشينا فيه ثلاث ساعات،[٣] ومن بعد ذلك صعدنا إلى رأس جبل لنرقد تلك الليلة. وهذا المنزل يسمى بوركارفون، وثاني يوم سافرنا ورقدنا في منزل آخر يسمى جاكري. ومن ذلك المنزل دخلنا إلى البلدة التي تسمى باناما الجديدة؛ لأن من سابق عام كان قد احترقت باناما القديمة،[٤] ولما وصلتُ إلى البلد رأيت كل البيوت معمرة من خشب. وثاني يوم نزلت عند أسقف هذه البلدة، فرأيته رجلًا قديسًا، فصار لي معه صداقة عظيمة حتى تخاوينا مع بعضنا بعضًا، فهو أعطاني خاتمهُ، وأنا أيضًا أعطيته خاتمي. وهذا الأسقف الشريف كان اسمهُ دون أنطونيو ده ليون، وأعطاني عكازته الصغيرة التي كان يمسكها في يده، وبقيتُ في هذه البلدة مقدار شهر.

[٣] هو نهر شاغر Chagre.

[٤] أغار القراصينُ الإنكليز بقيادة زعيمهم مورغان Morgan سنة ١٦٧٠ على باناما فنهبوها وأحرقوها فأعاد الإسبانيون عمارها قبل وصول سائحنا بمدة قصيرة.

من باناما إلى غوايا كيل في بلاد البيرو

ثم ركبتُ في مركب وسافرنا في بحر القبلة الذي يسمى البحر الأزرق، قاصدين بلاد البيروه. وكان قبال هذه الأسكلة باناما جزيرة صغيرة مسكونة تسمى تابوكا Taboga، قريبة من الأسكلة المذكورة ثلاثة فراسخ، ففي الحين صادفتُ برفقتنا في المركب رجلًا خيِّرًا يُدعى قبطان فرنسيسكو، من بلد طروخيليو. فلما وصلنا إلى هذه الجزيرة، وكان دخل من الليل ساعتان، قال لي القبطان بأن نمضي ونرقد في البر؛ لأن حاكم الجزيرة هو صهري. فطاوعته ونزلنا على كلك صغير حتى نطلع للبر، وهذا الكلك هو خمس خشبات، فلما اقتربنا من المركب قاصدين الأرض انقلب الكلك، والوقت ليل وعتمة، فأنا لما نظرت روحي في الماء خبطتُ وتعلقتُ بالكلك بتلك العكازة التي كان أعطاني إياها الأسقف. وهكذا أعاننا الرب ووالدته مريم العذراء حتى إننا خرجنا ثلاثة أنفار إلى الأرض بغير ضرر البتة. وسكنَّا هنا ثلاثة أيام إلى أن حمل مركبنا ماء للشرب، ثم بعد الأيام المذكورة سافرنا في البحر، والأرض كانت قريبة من شمالنا، وأيضًا يوجد في هذا البحر في دربنا مكان يسمى كوركونا Gorgone، يعني دوار البحر، فإذا وقع مركب هناك يبقى خروجه أمر عسير إلى وقت ما تأتيه ريح عاصفة تخرجهُ من هناك وإلا يهلك أناسه من الجوع. وهذا البحر السفر فيه مخاطرة بسبب شدة أمواجِهِ، يسمى البحر العجاج المتلاطم بالأمواج؛ لأن العابر فيه مفقود، والخارج منه مولود،[١] فلولا عناية الله الذي أعاننا حتى إننا خلصنا من شر أمواجه لبقينا على وجه الماء مقدار شهر، إلى أن سهل لنا الباري عز وجل اسمهُ فوصلنا إلى ميناء يسمى سانتا إيلينا s^te Hélène، يعني قديسة هيلانة. ثم رسينا هناك، وكان في رفقتي

---

[١] كأن الكاتب يذكر ما قرأه في كتاب ألف ليلة وليلة، فنقل هذه الفقر بحروفها.

ثلاثة رجال كرماء رائحين ليحكموا كل واحد في منصبه، فبعد أن حصلنا في الأرض وبقينا خمسة أيام من خوفنا من شر البحر قصدنا أن نمشي في البر ولو صار لنا تعب عظيم لبعد الدرب.

حينئذٍ أخبروني في هذا الميناء عن رجل من الهنود عمرهُ مائة وخمسون سنة، فقصدتُ أن أروح أزورهُ فنظرته صحيح الجسم عتيق الأيام، فابتدأ يحكي لنا عن الأيام السالفة، وذكر لنا قائلًا: إن بالقرب من هذا الميناء بفرسخ واحد يوجد مغارة كبيرة، وهناك مدفونون أُناس من الجبابرة. وأيضًا أخبرني بأن والدهُ كان حكى له أنه لمَّا وصلت مراكب السبنيولية إلى تلك البلاد واكتسبوها كان الهنود يظنون أن المراكب هي حيتان البحر، وقلاع المراكب كانوا يظنونها جناح الحيتان؛ لأنهم إلى ذلك الحين ما كانوا رأوا مركبًا، ولما كانوا ينظرون إلى الخيل وراكبيها كانوا يظنون أن الفرس وراكبها شقفة واحدة. ثم إني لما سمعتُ عن الذي جرى في تلك البلاد وعن الجبابرة المدفونين هناك صار لي رغبة أن أنظر ذلك عيانًا، فأخذت معي رفقاء من الهنود اثني عشر نفرًا، مستعدين بالسلاح، ورحنا قاصدين تلك المغارة لننظر الذي سمعناه. فعند وصولنا إليها أشعلنا الشمع الذي كان معنا؛ لخوفنا أن نضيع داخل المغارة، فعبرنا والشمع بيدنا، وفي كل عشر خطوات أوقفنا رجلًا في يدهِ الضوء حتى لا نضيع درب الباب، وأنا تقدمتهم وسيفي مسلول في يدي. ثم إني وصلتُ حيث موضوعة العظام، فنظرتها ثخينة، وأما الجماجم فهي كبيرة جدًّا، فقمتُ قلعت من إحدى الجماجم سنًّا، أي ضرسًا كان هذا قد كبره حتى إنه كان يزن مائة مثقال لثقلهِ، وأيضًا تأملت في عظم الساق وقست أحدها، فكان طوله خمسة أشبار، ففي بعض البلاد عمل أحد المصورين قياسًا وتخمينًا لهذا الجسم فوجد ارتفاعه خمسة وعشرين شبرًا. ثم خرجنا من المغارة متعجبين جدًّا مما نظرنا وأنا أخذتُ معي الضرس المذكور.[٢]

[٢] ذكر مرارًا السائحون في البيرو عظام الجبابرة القدم. قال كوريال من معاصري رحَّالتنا في سفرته إلى ضواحي غواياكيل: «وقد ذكر لنا الهنود أن قومًا من الجبابرة كانوا يسكنون أرضهم فنزل شاب من السماء وأبادهم بالنار. وقد لجأ بعضهم إلى المغاور والكهوف فماتوا فيها حريقًا.» وذكر غيره أنه قاس سنًّا فكان عرضها ثلاث أصابع وطولها أربع أصابع، وهذا يثبت كلام سائحنا، لكنها عظام بعض الحيوانات القديمة لا عظام بشرية.

وصف التمساح المعروف باسم قيمان[1]

ومن هناك توجهنا إلى الميناء واستكرينا خيلًا وخرجنا مع الهنود قاصدين كورة غواياكيل Guayaquil، وهي أيضًا ميناء البحر الأزرق، وهي درب أربعة أيام. والدرب حرش وأشجار وبعض أنهر صغار، ويوجد فيها حيوان كمثل التنين يسمى قيمان كالتمساح، وفمه واسع وطويل مقدار خمسة أشبار، وطول جسدِهِ خمسة أذرع. هذا إذا صادف إنسانًا يبتلعهُ في الحياة، ولكن الإنسان الميت لا يأكلهُ فيخرج من الماء ويطوف قرب النهر، فإذا وجد إنسانًا أم حيوانًا بالحياة يبتلعهُ ويركض على يديهِ ورجليه كمثل يدي السباع. فإذا جاء فرس أو ثور يشرب ماء من النهر فيطف عليه ويسحبهُ من مناخيره ويوديه، فيجتمع عليه البعض من هؤلاء الحيوانات ويقطعونه ويأكلونه، فإذا أراد الكلاب أن يشربوا ماء ينبحون أولًا على حافة النهر فيسمع هذا الحيوان صوتهم فيخرج ليبتلعهم، فعند ذلك يرجع الكلاب هاربين وراكضين إلى مكان آخر ليشربوا الماء؛ لعلمهم أن القيمان هو في المكان الذي نبحوا. هكذا يتحايل الكلاب على القيمان. وأما الحيلة التي يصطاد بها الهنود هذا الحيوان: فالأولى هي أنهم يأخذون عودًا قدرهُ نصف ذراع، ورأسا العود منحوتان نحتًا رفيعًا، ويربطون في نصف العود حبلًا متينًا، وهذا العود يشوونهُ ويصقلونهُ مثل السيف، حتى يبقى صلبًا مثل الفولاذ، ثم يروح أحد الهنود ويجلس كامنًا على جانب النهر، فلما يخرج هذا الحيوان وينظر الهندي يقصد ابتلاعه ويفتح فاهُ ليبتلعهُ حينئذٍ يدفع الهندي ذلك العود المنحوت في فم الحيوان، وهو ماسكه بيدِهِ؛ فلما يقصد أن يطبق فاهُ ينغرس في فمه من الطرفين، وكلما

---

[1] Caïman.

يعض عليه ينغرس في لحمه ثم يسحبونه بعزم شديد إلى الأرض ويجاهدون أن يقلبوهُ على ظهره ليمنعوه عن المشي، حينئذٍ يقطعونه شقفًا. وأما الحيلة الثانية التي يصطادونه بها فهي أن أحد الهنود ينزل في النهر وفي يده حبل، ويغطس تحت الماء، ويصل إلى هذا القيمان وهو طائف على وجه الماء، ويرمي خربوتة «كبة» الحبل على نصف ظهره وهو تحت بطنه يحكحك لهُ وهو لاطٍ إلى، بينما يرتبط في بطنه بالحبل من نصفهِ ثم الهندي يسبح هاربًا منه؛ لأن هذا الحيوان لا يقدر أن يفترس شيئًا تحت الماء، لكن خارج الماء، فإذا خرج الهندي من النهر حينئذٍ يجتمع الرجال ويسحبون هذا الحيوان المربوط إلى خارج الماء ويقتلونه. وأنا نظرتُ بعيني لما اصطادوا اثنين منهم بسبب أن واحدًا من الحيوانات كان قد ابتلع صبيًّا من رفاقنا ونحن راكبون في الكلك، وهذا الصبي كان خادم خوري هذه الكورة، فصعب على الخوري وأمر أن يجتمع الهنود لصيد هذا الحيوان، فاصطادوا اثنين منها فشقوا بطونها فوجدوا شقف جسد الصبي المذكور فأخرجوها وأخذها الخوري فدفنها. وهؤلاء الحيوانات كثيرة العدد، وفي بعض الأوقات يخرجون من النهر ويضجعون بجانبه على الأرض، وفمهم مفتوح إلى الهواء، فيأتي عصفور صغير ويدخل في فمه ويبدأ ينقر من وسخ أسنانه فيشبع العصفور ويرجع طائرًا والحيوان يطيب له بتنظيف أسنانهِ.

من غواياكيل إلى كيتو

ثم وصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة غواياكيل المذكورة، وهذه البلدة مسكونة من الهنود والإسبنيول، وصار لنا من أناس هذه البلد إكرام زائد، ولاسيما من رهبان مار عبد الأحد. وبعد أن مكثنا هناك عشرة أيام خرجنا قاصدين قرية تسمى بابا Baba، مسكونة من الهنود والسبنيولية، وهي أرض سخنة، ويوجد هناك بساتين فيها جنس أشجار كأشجار التوت، تحمل ثمرة تسمى كاكاو Cacao، يعملون منها الجيكولاتا chocolat، وهذا الثمر تراهُ مثل البطيخ متعلقًا وملتصقًا على جسم الشجرة، فلمَّا يبلغ ويصفر يأخذونه ويقطعونهُ، ففي داخله يخرج الثمر، وهو حبوب أخشن من الفستق، ثم ييبسونه حتى ينشف، وبعد ذلك يقلونه فتراه كالقهوة في اللون والطعمة والريحة، لكن كثير الدهن. ومن دسامته يصير مثل العجين، ويضيفون إليه من السكر على قدر الحاجة، وكذلك أيضًا من القرفة والعنبرخام ويجبلونهُ عجينًا ويجعلونه أقراصًا وينشفونه بالفيء. ومن هذه الأقراص يغلون الجيكولاتا ويشربونها مثل القهوة. وهذا الثمر هو سالك عند الكل في جميع بلاد النصارى يأتون به من هناك ويبيعونه.

ثم خرجنا من هذه القرية قاصدين بلدة تسمى كيتو Quito، فسرنا وجزنا على قرية أخرى تسمى بوتيكاس دي سان أنطوان، فيوجد بهذا الدرب جنس قصب ارتفاعه أربعون ذراعًا، وثخن القصبة أغلظ من مطواية نول الحايك، ومن عقدة إلى عقدة ذراع. فهذا القصب يجعلونه صواري، أعني غطاء لسقف البيوت، والبعض منه ممتلئ ماء أبيض وحلو، وأنا شربتُ منه. ثم إني أمرتُ المكاري أن يقطع منهم ست عقد تكون مملوءة

ويحملها على بغل،[1] وأيضًا يوجد في هذا الدرب أجناس وحوش كمثل السعدان والميمون ألوان وأشكال. وأيضًا من قسم الطيور يوجد الدرَّة التي تتكلم وطير آخر يسمى باكامايا، وهو بقدر ديك كبير، لكن ريشهُ ملون شيء عجيب. ثم جزنا على قرية تسمى كوانلبو. ومن بعد أربعة فراسخ عدَّينا على قرية تسمى إنبات. وأيضًا يوجد في هذا الدرب جبال محاطة بالثلج، ومن رأس أحد هذه الجبال يخرج نار بولكان،[2] ففي إحدى السنين خرج من هذا الجبل نار كثيرة كرعد عظيم، وصار دخان زائد ورماد حتى غطى الجو، وما بقي تبان السماء ولا الشمس مقدار ساعتين. ومن بعد ذلك انحدر هذا الغيم وحرق كل شيء وجد من الحشائش على وجه الأرض وعكَّر الأنهر. ومن هذا الشيء صار طاعون في جميع جنس الحيوان لعدم قوتهم. ثم إننا وصلنا إلى قرية تسمى نشبت، ومنها رحنا إلى قرية أخرى تسمى لاتاكونكا La Tacunga، وفيها دير راهبات من طائفة الكرملتانيين قد بناهُ رجل صالح، وهو أسقف بلد كيتو، وصرف على عمارته وإقامته مائتين وخمسة وعشرين ألف غرش، وهذا الأسقف يسمى دون ألونصو بينيامونته نيسكره. وبهذه القرية جاء إلى ملاقاتي أربعة رهبان من رهبنة مار عبد الأحد، أرسلهم رئيسهم، فأخذوني إلى بلد كيتو، وأنزلوني في ديرهم لأن رئيسهم كان سمع أن معي أمر تثبيت هذا الرئيس من جنرالهم الذي في رومية.

[1] ذكر دولوا d'Ulloa هذا القصب في سفره من غواياكيل إلى كيتو ووصفهُ موافق لما قال الكاتب.

[2] هي جبال Cotopaxi وChimborazo وفيها قمم بركانية، والبولكان كالبركان.

كيتو وضواحيها

ثم إني استقريتُ في ديرهم مقدار ساعتين، فسمع حاكم هذا البلد عن قدومي ونزولي في الدير فخلى سرايته، وجاء سريعًا زارني وهو مغتاظ، وعاتبني على ذلك. فقلت له: تعلم يا حبيبي أن الرهبان خرجوا لملاقاتي قناقين،[1] وأتوا بي إلى ديرهم، قل للرئيس وخذني إلى سرايتك. فما رضي الرئيس أن أطلع من الدير، لكن تشارطوا مع بعضهم وفرضوا أن أكون طول النهار مع الحاكم وأتغدى معه، وفي الليل مع الرئيس وأرقد في قلايتي أنا وخادمي؛ لأن هذا الحاكم المبارك كان رفيقًا معي من إسبانية، وجئنا جملة في مركب واحد، وكلما كانوا يضيفوني في المركب من الطعام المفتخر كنتُ أوجبهُ وصرنا أصحابًا بالصدق. وهذه البلدة حيث يسكن الأسقف هي غنيَّة بالأموال، ومزخرفة بالكنائس والديورة. والأسقف المذكور كان غنيًّا جدًّا، لكن عديم الكرم، بخيلًا في العطاء. وأما الماء الذي يشربونه في هذه البلدة فهو عاطل؛ فتجد أكثر الناس يصير لهم مثل غدة كبيرة نازلة تحت حلوقهم. ويسكن في هذه البلدة هنود وأيضًا إسبنيول. فبقيتُ فيها شهرين. وأما ذلك الضرس المذكور الذي كنتُ أخرجتهُ من عظام الجبابرة الذين بمغارة سانتا إيلينا فكان لرجل من أصحابي بنت في دير الراهبات فجاء تدخل علي حتى يريه لبنته، فأنا طاوعتهُ كصاحب وسلمته الضرس، فلمَّا رأته الراهبات فمن يد واحدة إلى يد أخرى مضيعوهُ «أخفوه»، وما عدتُ وجدتهُ. ورمى أسقف البلد حرمًا حتى يظهروهُ فما صار ذلك ممكنًا. وكانت في هذا الدير راهبة في مرض نزيف الدم ثماني سنين، فلما أضافني الأسقف عندهُ طلب مني ما هي منفعة الماء الذي يخرج من ذلك القصب المذكور أعلاه فقلتُ له: أنا قرأتُ في بعض الكتب وفهمت أن ماء

---

[1] قناق «قُونَق» كلمة تركية معناها: نزل السفر أو المرحلة بعد قطع السفر.

القصب نافع للذين بهم نزيف الدم. فطلب مني أن أهدي هذه الراهبة من ماء القصب، فأهديتها، وشربت منه سبعة أيام فبرئت من علتها، وأيضًا رأيتهم يصنعون في هذا البلد جوخًا مثل جوخ اللوندرا،[٢] وأيضًا حكوا لنا عن جبل عندهم أن منه خرجت من مدة سنين نار كمثل الرعد، وأصعدت هذه النار بعزم قوتها حجارة محرقة وحذفتها بعيدًا عن الجبل مقدار أربعين فرسخًا.[٣]

وذكروا لنا أيضًا أن من مدَّة سنين بينما كان أحد الهنود يفلح الأرض وجد أيقونة مريم العذراء مطمورة في الأرض، وهي عجيبة جدًّا في الرؤيا، فأخذها على بيتِهِ وأخفاها في صندوق له. فلمَّا جاء ثاني يوم إلى الحقل ليفلح وجدها في الحقل، فأعادها ثاني مرة إلى بيته، فثالث يوم جاء أيضًا ليفلح فوجدها هناك، ففعل كذلك عدة مرار وما أمكنه أن يضبطها في بيته. ثم إنهُ أعلم بذلك أسقف البلد فخرج حينئذٍ الأسقف واستقبلها بإكرام وأخذها بزياح إلى مكان قريب من البلد، وبنى لها كنيسة شريفة وأسكنها هناك. وتسمَّى كنيسة مريم العذراء جكيكواه على اسم تلك الضيعة، ويقصدونها من كل النواحي للزيارة. ولما يحدث في هذه البلدة طاعون يأخذون هذه الصورة ويخرجون بالزياح إلى بلد كيتو، فتبقى عندهم تسعة أيام بكل إكرام ووقار. وبواسطة هذه الشفيعة ينقطع الطاعون عن البلد، ثمَّ يرجعونها أيضًا بزياح إلى كنيستها في الضيعة المذكورة.

وأيضًا ذكروا لنا أن خارجًا عن هذه البلدة درب أربعة وعشرين فرسخًا نهر يخرج من تلك الجبال، وعندما يزيد يرمي على الأرض من قلب الجبل رملًا مخلوطًا بذهب، فهناك أناس يعرفون الزمن الذي ينقص فيه النهر فيذهبون ويغربلون النهر ويعزلونه من الذهب، فأنا نويت أن أبصرهُ بعيني، فأشار علي أناس أن لا أروح لأن السلوك في هذا الدرب صعب جدًّا لأجل ذلك قصَرت المسير إليه، لكني اشتريتُ من ذلك الذهب في بلد كيتو.

---

[٢] هو الجوخ العادي المصنوع أولًا في لندرا ثم في جنوبي فرنسة. وقد اشتهرت في القرن السابع عشر والثامن عشر معامل اللنغدوق languedoc في فرنسة التي كانت توفد إلى الأساكل الشرقية في كل سنة نحوًا من خمسة عشر ألف قطعة أو ثوبًا، ثمن القطعة أو الثوب مائتا فرنك. اطلب Histoire du Commerce français dans le Levant au XVII Siècle par Panl Masson.

[٣] هو جبل بيشنشا Pichincha وقد انفجر انفجارًا مهولًا سنة ١٦٦٠ فأحرق كل الضواحي.

ثم إني بعد ما بقيت في هذه البلدة شهرين خرجت قاصدًا قرية تسمى أوطاوالو، وفوق هذه القرية خيط يسمى في حكم الأفلاك باللسان الفرنجي لينيا Linea،[٤] وتجد سكان هذه القرية عديمي اللون مورمي البطون. وذكروا أن في بعض الأيام تسقط من الجو طيور ميتة. وهناك ما يوجد فيء غير ظل الأشجار والشمس دائمة لا تغيب. وأيضًا ذكروا لنا أن خارج هذه البلدة كيتو بمقدار خمسة وعشرين فرسخًا، يوجد هنود من الكفرة، وهناك يروح قسوس يكرزون بإيمان المسيح، فأحضروا معهم من تلك الأراضي زهر أشجار القرفة، ولكن ما يوجد أناس يفهمون تربية هذا الدارصين وإصلاحه مثل الدارصين الذي يجيء من هند الشرق؛ لأنه حاد يحرق، والهنود لا يريدون أن يكتشف عليه السبنيول حتى لا يأخذوا بلادهم. وأيضًا ذكروا لنا أنه يوجد هناك جوز الطيب، والهنود يجمعونه وهو أخضر مثل الزيتون الكبير ويرسلونه إلى كراكس Caracas، وهناك يبيعونه للإنكليز والأولنديز ولا للسبنيولية، وأيضًا في تلك الكورة دائمًا صواعق وأمطار شديدة.

[٤] معنى لينيا الخط، يريد به خط الاستواء Ligne de l'équateur الذي ينصِّف الكرة الأرضية إلى قسمين متساويين شمالًا وجنوبًا.

من كيتو إلى كوانكا

وصف عيد الثور

ومن هناك رجعتُ إلى بلد كيتو، ومنها خرجتُ قاصدًا القرية لاتا كونكا La Tacunga ومن هناك إلى قرية إنبات Hambato التي تبعد عشرة فراسخ من كيتو، ومنها إلى بلدة تسمى ريوبانيا Riobamba، وهذه بلدة جميلة العمائر ولطيفة الكنائس، وأناسها أغنياء وأشراف. فنزلتُ في دير مار عبد الأحد، وقبلوني بفرح عظيم مع زائد الإكرام، وقدَّستُ هناك. وعوائد قدَّاس هذه الرهبنة تشاكل لبعض عوائد قدَّاسنا؛ فلهذا السبب انشرح خاطرهم عند استماع قدَّاسي،[١] وأنا بعد ذلك بقيتُ هناك ثمانية أيام، ثم خرجتُ قاصدًا بلدة تسمى كونكا Cuenca فبعد سبعة أيام وصلنا إليها، وكان دربنا جبالًا وثلوجًا، وتسمى هذه الجبال بارامو Paramo لشدة البرد الذي هناك، ففي هذا الدرب يوجد نهر منحدر من الجبال التي يسكنها الهنود الكفرة، فذكروا لنا أن من مدة سنين كان أولئك الهنود عملوا لهم خمسة سنابك صغار وركبوا فيها وانحدروا إلى أن وصولوا إلى الدرب الذي يمر به التجار السبنيولية، فبينما كانوا ذات يوم مجتازين من هناك ومحتملين قفلًا من البضائع خرج عليهم الهنود المذكورون فترك أناس القفل أحمالهم وانهزموا لخوفهم من القتل. ثم

---

[١] لرهبان مار عبد الأحد «الدومنكان» بعض طقوس قديمة في ليتورجية القداس خاصة بهم تقترب من عوائد الشرقيين، وهي لا تزال مرعبة عندهم إلى أيَّامنا.

إن الهنود فتحوا الأحمال وأخذوا من البضائع الذي اختاروا وتركوا لهم عوضها أقراصًا من ذهب، فأتى أهل القفل وأخذوا ذلك الذهب عوض متاعهم.

وأما أنا فبعد وصولي إلى هذه البلدة كونكا المذكورة صار مزاجي ضعيفًا وبقيتُ مطروحًا في الفراش عشرة أيام معالجًا من الأطباء، لكن شافية المرضى مريم العذراء أعطتني العافية، وحاكم تلك البلدة كان صاحبي؛ لأنه كان رفيقنا في المركب لما سافرنا من إسبانية، فأراد أن يعمل لي فرجة لأجل انشراحي، وهذا المفترج يسمونه في بلاد إسبانية عيد الثور، ويلعبون على هذا النوع أولًا: يحوطون ساحة برفوف وخشب ثم يضعون خوانات شيئًا فوق شيء، يعني كمثل الدرج، ويجتمع الناس ويجلسون فوق هذه الخوانات ويستكرون كل واحد منهم لأجل الفرجة. وبعد ذلك يأتون إلى تلك الساحة بثور من الثيران البرية الوحشية، ويكون ذلك الثور مسجونًا، فعندما يفلتونه على غفلة في تلك الساحة المحاطة بالناس يجري الثور جازعًا وما ينظر له دربًا ينفذ منه. فبعد ذلك يدخل إليه خيال وفي يده رمح ويتلاعب مع الثور والثور يهجم عليه، فيهرب منه، وبعد ذلك يقتل الثور، والثور أيضًا بعض أحيان يقتل الفرس وفارسها بقوة قرونه. وهذا العيد والمفترج في كل ملك إسبانية اعتادوا أن يصنعوهُ في موسمِهِ كل عام.

معادن الذهب

ومن بعد ذلك خرجتُ من هناك قاصدًا قرية تسمى خاوخا،[1] فسرنا في صعوبة الأمطار ليلًا مع نهار مقدار ثلاثة أيام، ودخلنا إلى خاوخا، وبقيت هناك يومًا وليلة من شدة البرد وكثرة الأمطار. وثاني يوم خرجتُ منها قاصدًا الجبال التي هي معدن الذهب إلى قرية تسمى صارونا Zaruma، فصرنا في درب عسر المجاز بين الجبال مقدار ثلاثة أيام، ووصلتُ إلى تلك القرية المذكورة، وهي على رأس جبل، وحولها المعادن الذهبية. فنظرتُ جميع تلك الصنائع التي بها يستخرج الذهب من الحجارة، أولًا يُطلعون الحجارة من المعدن ويسحقونها بطاحون الماء، وحينئذ يغسلون ذلك التراب المسحوق ويقطعون منه الذهب بتصويله في الماء، ثم يذيبونه ويسكبونه أقراصًا. وأنا اشتريتُ من ذلك الذهب أربع مائة مثقال؛ لأن ما كان زمان شغل كل الطواحين، وبعد عشرة أيام أردتُ أرجع إلى دربي لكن خوري تلك الضيعة قال لي: إنه يوجد درب آخر وهو أحسن من دربك لكنهُ درب قفر خالٍ من الناس والقرى، فتحتاج أن تأخذ معك زوادة كفاية خمسة أيام. فوقفتُ لشورهِ وطعتُ لقوله، وحملتُ معي ما أحتاج من الزوادة، وأخذتُ معي رفيقين، أعني مكاريين، الواحد منهما هندي، والآخر مستيسو؛ يعني ممزوج أمهُ هندية وأبوهُ إسبنيولي.

[1] هكذا في الأصل، واسم هذه المدينة في الخارطات التي بيدنا لوخا Loja.

أسفار وأخطار

ثم سرنا في درب عاطل بين الجبال يومًا وليلة، فأراد الشيطان أن يطغي ذلك المكاري المستيسو؛ لأنه كان قد نوى قتلي لكن الله تعالى كشف نيته على يد خادمي؛ فأخذتُ منه السلاح وبقيتُ متحذرًا على روحي إلى وقت ما وصلنا إلى ثلاث قرًى مقتربة لبعضها الواحدة تسمى باسيليكا، والثانية جونجوناماه، والثالثة واكاناما. فلما نظرني سكان هذه القرى الذين هم هنود تحيروا مني قائلين: كيف دخلت في هذه الدروب العسرة، إما أنك نبي أو قديسٌ، وقسوسهم أيضًا هنود مثلهم، لكن هنود تلك البلاد ليس لهم ذقون، بل بعض شعرات ثابتة في حنكهم، وأنا لأجل أني كنتُ رجلًا كامل اللحية فكانوا يتعجبون مني قائلين: إنني ذو شجاعة شديدة بحيث جزتُ تلك البلاد.

ثم ثاني يوم خرجنا من هناك مسافرين وقاصدين قرية تسمى طابية Amotapé، فبينما ذات ليلة وأنا نائم تحت الخيمة عمل رفيقاي الاثنان المذكوران ما بينهما شورًا وتدبيرًا على قتلي وأنا كان معي صبيٌّ صغير من أولاد الهنود، وكان يعرف اللسان السبنيولي، وهذا الصبي قام في الليل وإلا سمع كيف أنهما تشاورا على قتلي، فأسرع الصبي مرتعشًا إليَّ وفيقني وأعلمني بذا الأمر، لكن بتوفيق الله تعالى انفرد تلك الليلة بغلٌ من البغال وظل هاربًا بين الجبال، فأخذ رفيقي المستيسو المذكور يركض خلفه طول الليل، ورجع به عند طلوع الشمس، فذلك الوقت أخذتُ منهما أسلحتهما؛ لأنه ما كان معي سلاح، ومن خوفي من مكرهما أخذتُ السيف بيدي وناديتُ المستيسو وقلتُ له: ابرك[1] على ركبتيك وأَصدقني كيف طغاك الشيطان على هذا الفكر، اعترف أمامي بالصحيح. فأقرَّ معترفًا وطالبًا مني أن

---

[1] أي اجلس وهي كلمة حلبية.

أغفر لهُ وأسامحهُ. ثم بعد خمسة أيام وصلنا إلى تلك القرية المذكورة، فمن قبل دخولنا إلى القرية بين الأشجار هرب هذان الخائنان من خوفهما وتركا بغالهما، فجاء خوري الضيعة واقتبلني بإكرام. ثم إني حكيتُ له عن الأحوال التي عرضت فقال لي: الله نجاك من شرهم؛ لأن أخي هكذا قتلوهُ في هذا الدرب. وهذه القرية يجري بجانبها نهر يسمى نهر كولان Fleuve Colan، وفيه سمك زائد، وهو كنهر الدجلة، فذاك اليوم جزتُ هذا النهر ووصلتُ إلى بلد يسمى كولان Ville de Colan، كله هنود، ثم نزلتُ في بيت الخوري، وكانت ليلة عيد مار يعقوب أخي الرب، فعزمني الخوري أن أقدس ثاني يوم، وكل النذر الذي يقدم للخوري يكون لي أنا. فقدست ثاني يوم وحضر جميع الهنود قداسي، وكان عددهم أربعة آلاف نفر، وبعد خلوص القدَّاس جلستُ على كرسي وعملتُ بركة؛ أعني خبزًا مباركًا. فبقيَ الناس يجيئون يبوسون يدي ويأخذون البركة ويرمون النذر في الصينية، فبعد خلوص ذلك نظرتُ اجتمع من النذر مقدار مائتين وخمسين غرشًا.

مغارة الذهب في بيوره[١]

فبعد يومين كتبتُ إلى حاكم بلد بيوره أن يرسل لي تختروان الذي يسمى بلسان السبنيولي ليتيرا؛[٢] لأن هذا الحاكم كان مرافقنا من إسبانية مع عيالِهِ، ففي حال وصول مكتوبي إليه أرسل لي التختروان؛ لأن في تلك الأرض يصير تعب عظيم للذين يروحون راكبين الخيل بسبب الحر والرمل، فجزنا إلى ميناء على ساحل النهر يسمى بايتا Payta، وهي بعيدة من كولان فرسخين، ومنها سافرنا بالليل إلى بلدة تسمى بيوره درب أربعة عشر فرسخًا، فنزلتُ في دار الحاكم واقتبلني بزائد الإكرام. وهذه البلدة ساكنوها إسبانيولية مع هنود أغنياء وبها كنائس مزخرفة ومحتشمة.

وذكروا لنا أن من مدَّة خمس عشرة سنة كان رجل من أشراف الهنود يسمى كلسيكي، وكان غنيًّا وما له سوى بنت واحدة، فيومًا من الأيام سافر أبوها إلى غير بلدٍ، فالبنت المذكورة نظرت رجلًا لابسًا ثيابًا حقيرة فقالت له: ما بالك لابسًا هذه الثياب الدنيَّة؟ فأجابها قائلًا: لشدة فقري وعازتي. فأجابته قائلة: إن كنت تكتم السر فأنا أعطيك من الخيرات حتى أرضيك وأغنيك. فقال لها: نعم، هكذا يكون. فوعدته هذه البنت أنه لما يحين الليل يجيء ينتظرها في المكان الفلاني فتأخذهُ إلى مغارة أبيها التي هي خارج البلد. ثمَّ إنها أخذت ذلك الرجل بعد أن ربطت عينيه وقادته إلى المغارة المذكورة كضرير، فلما وصلا إلى المغارة

---

[١] Piura.

[٢] Litera وبالفرنسويَّة Litière وتختروان كلمة فارسية مركَّبة من لفظتين معناها: سرير السفر.

حملتهُ من أقراص الذهب على قدر ما يقدر حمله ورجعت إلى قرب البلد وفكت الرباط عن عينيه، وأطافتهُ بسبيلهِ. فلما جاء أبوها من سفره قصد ذات يوم المسير إلى المغارة ونظر في باب المغارة أصل دوسة مداس فعلم أن ذلك الكشف صار من بنتهِ فسقاها سمًّا وماتت، وهو أيضًا مات على غفلة. وإلى اليوم يستقرون المغارة وما قدروا أن يلاقوها.

من بايتا إلى طروخيليو

وبعد أن مكثتُ هناك عشرة أيَّام خرجتُ قاصدًا قرية تسمى ليلموا، فسرنا في درب مقفر عديم الماء وكلهُ رمل مثل أرض مصر، وكل أهل هذه القرية هنود، لكن قسيسهم فقط إسبنيولي، فالبعض منهم نصارى حقيقيون، والبقية نصارى من خوفهم. وثاني يوم خرجتُ قاصدًا بلدة للهنود تسمى لمبايك Lombayeque، وهذه البلدة كبيرة يسكنها هنود أغنياء، وبعض من السبنيولية، فعزمني وكيل الأسقف الذي هناك إلى دارهِ وطلب مني أن أقدس يوم الأحد وأكرز على الهنود باللسان السبنيولي. فقدست نهار الأحد، وكرزت عليهم، وكان في الكنيسة خمسة وثلاثون قسيسًا ومقدار ثلاثة آلاف نفس من العوام، فصار لهم انشراح عظيم من تلك الكرزة، وكانوا يتعجبون مني بسبب الذقن وتغيير الثياب، وكانوا كلهم يكرموني ويتباركون مني لأني وهبتُ لهم مسابح وصلبانًا من القدس. ثم بعد خمسة أيام خرجتُ من هناك قاصدًا بلدة تسمى سانيا Sagna، وهذه بلدة كبيرة يسكنها هنود وإسبنيول. وفي جانب هذه البلدة يسلك نهر كبير، وكنتُ أسافر في الليل لشدة الحر وأنا راكب في ليتيرا أعني تختروان.

فذات ليلة تغافل المكاري ونعس فضلَّ البغال عن الدرب، ودخلت في الحرش بين الأشجار. وهذا الحرش داخلهُ عظيم لا لهُ أول ولا آخر. فلما فقت على ذلك أمرت خدَّامي أن ننزل هناك لئلا نتيه أزيد عن الدرب ونهلك مثلما جرى لآخرين. فلما صار الصبح قلتُ للمكاري الهندي أن يعمل نارًا كثيرة ودخانًا عظيمًا. فأما رفقاؤنا فكانوا سبقوني إلى المنزل، فلمَّا نظروا أننا تعوَّقنا علموا أننا تهنا عن الدرب؛ فأرسلوا أناسًا ليفتشوا علينا، فأنا قلت للمكاري أن يصعد إلى رأس شجرة عالية وينشر علمًا أبيض؛ يعني بيرقًا، فثاني يوم قريب نصف النهار وصل إلينا أولئك المفتشون، فرأونا هناك على نيشان ذلك البيرق واغتاظوا على المكاري كيف أنه حاد عن الدرب. وأكثر أشجار ذلك الحرش من أشجار القطن، ما

لهم أصحاب، وهو خشن جدًّا قدر الرمان وحبهُ قوي صغير لكن شعرة هذا القطن طويلة كالصوف، وكل من يريد من الهنود يروح يأخذ قطنًا على قدر حاجته، وينسجون منه مآزر للنساء وغيرها من الحوائج اللازمة. فوصلنا بعد يومين إلى البلد المذكور الذي يسكنه إسبنيول وهنود، وحاكمهم يسمى جنرال، فبقيت هناك أربعة أيام بعز وإكرام من الجنرال ومن وكيل الأسقف. ثم خرجت من هناك قاصدًا بلدًا يسمى طروخيليو Tujillo، فسرنا درب عشرة أيام، وهو درب عسر قليل المنازل وعديم المعاش. وكنت قد أخذتُ معي ما أعتاز إليه من قسم الأكل والشرب. وكان لي حصان وبغلة يدك،[١] لمَّا يكون الوقت بروده كنتُ أركب عليها، وإذا وغلت وتعبت من الركب كنتُ أدخل إلى التختروان. فجزتُ إلى هذه البلدة المذكورة، وهي كبيرة يسكنها أسقف، وكان حينئذٍ الأسقف قد توفي وبقي الكرسي خاليًا. وفي هذه البلدة رهبان من رهبنة مار أفرنسيس ورهبنة مار إينياسيوس اليسوعية، وأيضًا قسوس وخوارنة، جميعهم مقدار ألفي كاهن. فعزمني رهبان مار أفرنسيس أن أقدس عندهم، وكان نهار عيد مار أفرنسيس الذي دائمًا يحكم في ٤ تشرين الأول. فرحتُ قدست هناك فكانت الكنيسة ملآنة من الناس فانشرحوا كثيرًا من قداسي لأن كان معي آلة القداس والبدلة التي كان أنعم علي بها سيدنا البابا، وكان نيشانه وختمهُ مرسومًا عليها، وكان الناس يأتون ويتباركون منها.

---

[١] يدك: كلمة تركية يراد بها دابة ثانية، يستعملها الخيال عند الحاجة.

السفر إلى ليما

فمن بعد أن بقيت في هذه البلدة عشرة أيام رجعت قاصدًا بلد خاماركا Cajamarca التي هي في رأس جبل، وكان يسكنها ملك الهنود الذي كان يسمى إينكارسوف. وسنتكلم عن خبر هذا الملك العظيم، فبقيت هناك ثلاثة أيام، وأروني كل ما صار على هذا الملك، وكيف قتله الإسبنيولية. واليوم الرابع خرجتُ من هذا البلد قاصدًا بلدة ليما Lima، حيث يسكن وزير الملك الذي يحكم على تلك البلاد. فنزلت من الجبل قاصدًا البلدة المذكورة، ومن بعد أربعة أيام وصلنا إلى نهر يسمى سانتا Santa، فهذا النهر زائد الماء، وما له مجاز فيجوزونهُ بشدة وخوف؛ لأن الهنود اخترعوا شيئًا للمجاز يسمى بالصا Balsa، يعني كلكًا، فيجمعون قرعات يابسات ويربطونها ببعضها مثل كلك، ثم يجعلون عليها خشبًا وفوق الخشب حشيشًا مثل عروق الشجر، ويحملون الأحمال عليها ويفوِّتون الناس من جانب إلى جانب، والدواب تقطعهُ سباحة بالماء. فجزنا هذا النهر بخشوع، وطلبات إلى الله ووالدته مريم العذراء. ومن هناك بقينا مسافرين وجزنا على أراضي قصب السكر، وعلى المعامل التي فيها يشتغلون الجوخ. وكان في رفقتي رجلان فقيران كل واحد ناقصة له يد؛ فالأول كان جنديًّا وانقطعت يدهُ بالحرب مع الهنود، والآخر كان لدغته حية في يده فقطعوها له.

الإقامة في ليما

فمن بعد ثمانية أيام وصلنا إلى مدينة ليما Lima المذكورة ونزلت في بيت الأنكيجيدور Inquisidor، أعني رئيس ديوان الإيمان؛ لأنه كان صاحبي من إسبانية، وكنت دينتهُ ألفًا وأربعمائة غرش في مدينة بورتوويلو، فأعطاني فائدة عن كل مائة غرش أربعين غرشًا مثل ما يسلك بين التجار في تلك البلاد. ثم بعد أن ارتحت من تعب الدرب رحتُ قابلت الوزير وقدمت له أمر الملك ومكاتيب الوصية التي أحضرتها معي من إسبانية. وهذا الوزير كان رجلًا مباركًا اسمه دون بغدسار ويلاكوكونده ده كستيليارو مركيز ده ماراكون من أكابر إسبانية، فقبلني بفرح عظيم، ووعدني أنه يساعدني في جميع الذي أعتازه. ثم إني دخلت زرت امرأته فاقتبلتني أيضًا بالإكرام. وهذا الوزير المبارك كان قد تزوج منذ أربع عشرة سنة وما رُزق ولدًا، وسنأتي بعد هذا بحكايته. ثم إني رجعت فزرتُ كبير الكهنة، الذي يسمى أرشيدياقون، مع جملة أرفاقه الكهنة لما كانوا مجتمعين في الكنيسة للصلاة. وأما مطران هذه البلدة فكان قد توفي وبقي الكرسي خاليًا من مطران. ولهذه المطرنة مدخول في كل سنة خمسون ألف غرش، وتحت يده مائة وعشرون خوريًّا، وكانوا منتظرين المطران الجديد الذي كان آتيًا من إسبانية. وبعد أن بقيت في هذه البلدة عشرين يومًا وقعتُ مريضًا في الفراش بمرض شديد، وكان حكماء الوزير يعالجونني؛ فشفاني الرب من مرضي بعد عشرين يومًا بشفاعة أم الرحمة مريم العذراء؛ فقمتُ ورحت عند الوزير وتلاقيت معه ثاني مرة فقبلني بفرح وعز وإكرام. ولما كنت مريضًا كان يرسل عندي خزنداره يزورني مع أحمال من الحلاويات المفتخرة، وكان يسأل عن حالي كل يوم مرتين. وفي ذلك الحين جاء رجل من أصحاب المعادن وقال للوزير: إنه يقدر يستخرج الفضة من الحجر من غير أن يضيف إليها زئبقًا؛ فلما امتحنوا صنعتهُ وجدوها اختراعًا كاذبًا، وأنا كنت حاضرًا ونظرت ذلك عيانًا.

وقبل أن تملك السبنيولية هذه البلاد ما كان أحد يعرف الإله الحقيقي، وكان البعض يعبدون الأصنام، والبعض كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وما كان لهم أحرف ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة. لكن لما يريدون أن يقدموا عرض حال إلى ملكهم كانوا يصورون تصاوير في منديل على حسب شكايتهم. وكان في زمان فتح هذه البلاد ملكان أخوان، الواحد يسمى وداواليا والآخر يسمى وسكارانيكا. وكان بينهما الحرب، وكانت آلة سلاحهم وعدتهم القوس والسهام ورماح ومقاليع لحذف الحجارة. وما كان لهم مواشٍ — أعني مثل أفراس وبغال وحمير — ولا ثيران ولا بقر ولا غنم ولا دجاج، سوى جنس حيوان شبه الجمل بقدر الحمار، وحدبته في صدره، يحمِّلون عليه ويأكلون لحمهُ لكنه ما يسافر بعيدًا، وكل يوم قناقه أربعة فراسخ لا غير، فلما يتعب ينام ويزبد ويتفل على أصحابه. وهؤلاء الهنود لما كان يموت أحد منهم كانوا يصنعون له قبرًا عاليًا علو ذراعين، وطول ثلاثة أذرع، وكانوا يضعون في قبره آلة صنعته مع شربة من خمر الذرة.

وصف ليما

وفي هذه البلدة يصير زلازل كثيرة وشديدة. ثم إن الوزير وعدني أن يقف بخدمتي طول ما أنا بالهند، وكتب إلى جملة البلاد والقرى التي تحت حكمه يوصيهم عليَّ بالإكرام. وفي ليما عدَّة ديورة وكنائس، أولها الكنيسة الكبيرة التي هي كرسي المطران، وغير كنائس للقسوس وأربعة ديورة لرهبان مار أفرنسيس وثلاثة ديورة لرهبان مار أغستينوس وثلاثة ديورة لليسوعية وثلاثة ديورة لرهبان المرسي Merci وأربعة ديورة للراهبات. وفي كل دير يسكن ألف راهبة،[١] وأيضًا أربعة ديورة لراهبات الفقراء مثل: أيتام وأرامل ومنقطعين، وديران باسم مار يوحنا لمداواة المرضى، أي الغرباء والفقراء، واسبيتال، يعني مارستانًا كبيرًا على اسم الملك؛ لأن الملك يصرف عليه ويسمى ماراندراوس. وكانوا يعزمونني لأقدس في الكنائس والديورة ويكرمونني غاية الإكرام. وبقيت في هذه البلدة مقدار سنة في بيت رئيس ديوان الإيمان المذكور أعلاه يسمى دون خوان باتيستا ديلاكانترا، يعني يوحنا المعمدان من بلد كانترا. وهذا المبارك كان رجلًا كاهنًا وما أراد أن أصرف شيئًا على المأكول والمشروب. وهذه البلدة غالية المعاش بهذا المقدار حتى إن الدجاجة تساوي غرشًا ونصف غرش. وبعد أن تعافيت من مرضي زارني جميع رفقة الكهنة الذي يسمى كبيلدو Capildo،[٢] يعني ديوان الكنيسة، من حيث أخذوني في الرفقة إلى الكنيسة بالزياح. وعند دخولنا للكنيسة، حيث يمكث المطران والخوارنة، أجلسوني جانب كرسي الأرشيدياقون الذي بجانب كرسي المطران إكرامًا لي، ثم طلبوا مني أن أقدس؛ فأرسلت وأحضرت من الدار آلة القداس، فقدست لهم

---

[١] مبالغة أو خطأ من الناقل.

[٢] وبالأفرنسية Chapitre.

قدَّاسًا باللسان الكلداني؛ يعني السرياني الشرقي. فصار عندهم انشراح زائد لاستماع قداسي. فثاني يوم صنعوا ديوانًا بآياتهم «مع بعضهم» وأرسلوا إليَّ ألف غرش. وكذلك أيضًا في باقي الكنائس والديورة من الرهبان والراهبات كانوا يرسلون إلي شيئًا كثيرًا، وأنا كان لي عجلة يعني عرباتي[٣] بأربعة بغال مع عبد أسود خادمها.

[٣] أو عربة كلمة فارسية بمعنى مركبة.

السفر إلى خوان كابليكا[١]

ومن بعد السنة طلبت إجازة من الوزير لأروح إلى جبال الفضة والذهب؛ فطاوعني الوزير وأصغى لطلبتي، وكتب لي مكاتيب إلى جميع حكام البلاد وأبرشية القرى الذين تحت حكمهِ وصية عليَّ بأن يُعِزُّوني ويكرموني، وأرسل رفيقًا رجلًا من جنوده لكي يسبقني في الدرب ويهيئ لي ما أحتاج من المأكول والمشروب والمنزل في بيت حاكم القرية. فخرجنا من ليما وهذا الرجل برفقتي قاصدين بلدة تسمى خوان كاباليكا Guancavalica. ثم سرنا يومين بدرب سهل وصعدنا في اليوم الثالث إلى جبل الثلج ولا زالت الأرياح والبرد شديدًا. فابتدأت تتغير أمزجتنا وتقيَّأنا من سبب أننا خرجنا من أرض شديدة السخونة وجزنا عاجلًا إلى أرض باردة. ثم بعدما صعدنا إلى أعلى الجبل سرنا من مكان يسمى بوناده برياكاكا، يعني زمهرير السكر (؟) ومن هناك سافرنا فرسخين، فتلاقيت مع رئيس رهبان مار فرنسيس الذي يُقال له بروبنسيال Provincial، فسألني عن الدرب، فحكيت له ما جرى علينا من تغير المزاج، فعند ذلك افترق منا ورحل من درب آخر. ووصلنا في ذلك النهار إلى نهر يسمى نهر بوني، وعليه جسر ممتد من جانب إلى جانب منسوج من حبال القنب ومربوط بالأشجار، ففتنا عليه بصعوبة، وأخذوا الخيل إلى درب آخر مجردات وأدخلوها النهر. ومن بعد عشرة أيام وصلنا إلى البلدة المذكورة خوان كاباليكا، وهي بلدة صغيرة، فنزلت في دير اليسوعية. وفي هذه البلدة تختلف الأرياح ثلاث مرات في النهار، ووقت العصر دائمًا تمطر. وهي أرض قليلة العافية؛ لاختلاف الأهوية، ولسبب الجبل الذي فيه معدن حجر الزئبق؛ لأنه مسلط على البلد.

---

[١] Guancavalica.

معادن الزئبق

ثم إني رحت لأنظر المعدن مع حاكم البلد، فرأيت هذا المعدن وعظمته، ونظرتُ أيضًا أن الفعلة يقطعون الحجارة ويخرجونها من تحت الأرض إلى فوقها. ثم أروني كيف يخرجون الزئبق فأدخلوني إلى بيت جعلوا أرضه أنجاشًا «ثقوبًا» ملصوقة ببعضها موضوعًا في كل منها برنج،[1] والبرانج مصفوفة ومنصوبة صفوفًا صفوفًا، ولها فم واحد منصوب إلى فوق، والفم الأسفل مسدود وغير مفتوح كمثل أجران، فيضعون حجارة الزئبق بصنعة مصطفة فوق البرانج كمثل عمل الفاخوري في أفران الخشف «الخزف»، وكذلك أيضًا يضعون الحجارة على البرانج وهذا البيت له سقف مغطًّى لكن قوي عالٍ، وفيه أبخاش لأجل منفذ الدخان. ثم يضعون الحطب فوق تلك الحجارة ويضرمون به النار؛ فيشعل وتسخن الحجارة سخونة قوية، ويجري منها الزئبق هاربًا ومنحدرًا داخل تلك البرانج. فعند ذلك يفهم معلمو الزئبق فيهدثون النار ويخلونهُ يومًا وليلة حتى يبرد، وبعدهُ يرفعون الحجارة والرماد ويكبونهُ «يلقونهُ» خارجًا، ويطالعون الزئبق من تلك البرانج. وهناك وكيل من جانب الملك يضبطه للملك، وهو يفي لأصحاب المعدن اثنين وخمسين غرشًا حق كل قنطار، وقنطار هذه البلاد هو ستة أمنان خندكاري،[2] ويبيع وكيل الملك القنطار بتسعين غرشًا لأصحاب معادن الفضة لأجل استخراج الفضة من الحجارة. وسوف نتكلم عن ذلك أيضًا. ثم إني قدست هناك على هيكل لهم في وسط المعدن وباركت عليهم وعلى معادنهم،[3] وقدم

[1] البرنج كلمة فارسية معناها النحاس ونظنُّها بمعنى الخابية والبرنية.

[2] الخندكار لفظة مماتة بالفارسيَّة معناها السلطان.

[3] قرأنا في كتب الأب فوليه Feuillée المرسل الفرنسيسي في البيرو من معاصري صاحب الرحلة وصفًا مسهبًا لهذه المناجم قال: «إن مناجم الزئبق الشهيرة في كل أمركة الجنوبية محفورة في جبل واسع بالقرب

لي أصحاب المعادن بشكاس،[٤] مقدار خمسين قنطارًا من الزئبق، وقالوا لي اصبر إلى شهر بينما يخرجون الزئبق من الحجارة ويعطوني المبلغ المذكور. فمن سبب الأهوية المختلفة خفت فتركت هناك وكيلًا ليستلم منهم الزئبق وقتما يستخرجونه لكن عليه يسق[٥] من الملك أن لا أحد من أصحاب المعادن يقدر يبيع زئبقًا ولا أحد يقدر يشتريه. وإن تجاوز أحد هذا الشرط ينهبوا مالهُ ويحل عليه القتل.

من غوانكافاليكا Guancavalica وهي ممتدَّة تحت الجبل، وفيه حفر منازل ودروب ومعبد. والمناجم مضاءة بعدد لا يحصى من الشموع.» ثم وصف استخراج المعدن وصفًا لا يكاد يفترق عمَّا جاء في متن رحلتنا سوى أنهُ قال: إن سعر القنطار ثمانون غرشًا.

[٤] بشكاس: لعلها باش كاس ويظهر من القرينة أنَّ معناها: الهديَّة أو البخشيش.

[٥] يسق: كلمة تركية معناها مانع أو محذور.

مياه محجرة

وصف الصبِّير

وفي هذه البلدة يوجد جنس ماء لونهُ أسمر، يجعلونه في وسط صناديق، ويبقى ثمانية أيام في الهواء، فيجمد حينئذٍ ويصير حجرًا، يعمرون به البيوت، وأنا نظرت ذلك عيانًا. وإذا وضعوا في وسط هذا الماء خشبة وبقيت أربعين يومًا فيخرجونها من الماء نصفها حجر صوان والذي يبقى فوق الماء من الخشبة يبقى على حاله خشبة. وأنا أهداني أحد رهبان اليسوعية صليبًا من هذا الجنس.[١]

وبعد عشرة أيام خرجت من هذه البلدة وصحبتي أربعة عشر رجلًا، خرجوا يودعوني إلى خارج البلد، ثم افترقوا مني ورجعوا. وأنا أخذت دربي قاصدًا بلدة تسمى أكوامانكا Guamanca. وفي هذا الدرب يوجد أشجار مختلفة الأجناس، وأكثرها أشجار يسمونها توكال، أوراقها في سمك كفين، وما لها أغصان، لكن الأوراق مشوكة، وفي طرف الورقة

---

[١] ذكر الأب فوليه المذكور هذه المياه المحجَّرة قال: إن ماء هذا النبع غاية من السخونة حال خروجه ويتحجَّر سريعًا إذا ما سال في الحقول. ومن حجاره يبني البناءون المنازل، جاعلين المياه في قوالب مخصوصة حسب رغبتهم وحاجة العمارة، ولا يتعب الحفارون ونقَّاشو التماثيل إذا أرادوا نقش تمثال، فإذا ما أتموا القالب وسكبوا فيه الماء جاء التمثال حجرًا بديعًا ينحتونه قليلًا زيادة في لمعانه.

تصير الثمرة، ويسمى في لسان الهنود تونس. وهذا الثمر كقدر بيض الدجاج لكن أصلب، وداخله حلو كطعم التوت، وهو مسهل ومبرد، فمن خارج الثمرة يصير شوك ناعم فيلتزم الإنسان أن لا يمسكها بيده إلا بعد أن ينظفها من الشوك، وهذا ممتلئ منه البر والجبال في ذلك الإقليم.[٢]

[٢] هو وصف شجرة الصبِّير المعروفة.

الوصول إلى أكوامانكا

ثم بعد أربعة أيام وصلنا إلى البلدة المذكورة ونزلنا في دير اليسوعية؛ لأن رئيسهم كان رجلًا صالحًا، وكان قد أرسل لهم مكاتيب يوصيهم على أن ينزلوني عندهم. وفي هذه البلدة كان أسقف غني جدًّا لأنه كان أولًا رئيسًا لديوان الإيمان، ويسمى الأسقف دون كريستوفلو دي كستيلو. وبعد أن استقريت في الدير تلك الليلة جاءني في الغد قسيسان من جانب الأسقف يهنئاني بوصولي. فثاني يوم باكرًا رحت أنا زرتهُ، فقام هو أيضًا بنفسه والتقاني، وسألني عن حالي، وعزمني إلى داره حتى أتغدى ذلك اليوم معه؛ فطاوعته وتغديت معه. ومن بعد المأكول أنعم علي بجنزير ذهب يسوى مائتي غرش، فلما سمع أكابر البلد بالإكرام الذي عملهُ لي هذا الأسقف المبارك جاءوا جميعهم زاروني. ومن بعد أربعة أيام خرجت مع راهبين يسوعيين ورحت زرتهم وأوفيتهم زيارتهم كعادة تلك البلاد. ثم الأسقف أرسل لي رفقة ليدلوني على بيوت الذين جاءوا زاروني؛ لأن اليسوعية كانوا قد كتبوا أسماء الذين زاروني واحدًا واحدًا. وفي هذه البلدة كنائس وديورة غنية جدًّا، فمن بعد ما زرتهم وارتحت ثمانية أيام رسم هذا الأسقف أن يعملوا كوميديه يعني تقليد القديس رجل الله الروماني الذي يسمى باللسان الفرنجي سان إيليسوا Alexius، وفي العربي مار ريشا. وهذه الكوميديه هي تشخيص ما عمل هذا القديس، وكيف أعطى خاتمه لعروسته، وشق الحيط وطلع راح يسيح في الدنيا.[١]

---

[١] أخبار مار ريشا مشهورة، اطلب «المشرق ٨: ٦٥٠».

فحضرنا هذا التقليد وانشرح خاطرنا. وكان أناس هذه البلدة يكرمونني للغاية بسبب أن الوزير كان قوي صاحبي. وبقيت في هذه البلدة عشرين يومًا في غاية ما يكون من الانشراح.

السفر إلى كوسكو

ثم خرجت من هناك قاصدًا بلدة تسمى كوسكو cusco. وخرج حاكم البلد ورئيس اليسوعية مع رفقائهِ وغير أصحاب ليودعوني، فسافرنا نصف فرسخ ثم تودعنا وافترقنا، فهم رجعوا إلى البلد وأنا ظليت مسافرًا. ومن بعد يومين وصلنا إلى نهر يسمى بوريما Apurimac. وكان على هذا النهر جسر ممتد منسوج من عروق الأشجار والأغصان عرضه ذراع أقل أم أزيد، وطوله عشرون ذراعًا. فجزناهُ بصناعة عظيمة مع خوف شديد؛ لأن الأحمال يحضرونها عن البغال ويدخلها الهنود على ظهرهم إلى جانب الآخر واحدًا بعد واحد، وأما البغال فيزلطونها من جلالاتها ويجيزونها الجسر، فإذا سقطت رجل البغل بين الخشب الممتد على ذلك الجسر حينئذٍ يخلون رءوس الخشب؛ فيسقط البغل من ذلك العلو إلى وسط الماء، ويسبح ويفوت إلى الجانب الآخر. فبهذا التعب العظيم جزنا، بسبب أن الجسر يتجوجح وينهز كالمهد لما يدوس الإنسان عليه. فلما حصلنا في ذلك الجانب شكرنا الباري تعالى على خلاصنا. فأما الهنود بسبب أنهم يعرفون السباحة فإذا سقط أحدهم في الماء يخرج سالمًا. ومن هناك سرنا في الدرب؛ فوجدنا أجناسًا من الحيوانات منها خيل وأفراس وحشية وبقر أيل وبغال وحمير، وغير أجناس أُخر، وهي تعيش في تلك الجبال المقفرة وما لها أصحاب. وجنس حيوان آخر يسمى بيكونيا، وهو كصورة الغزال لكن بلا قرون، فهذا الحيوان قوي أنيس؛ لما ينظر أناسًا أم دوابًّا مجتازين ينحدر من الجبل ليتفرج عليهم، وعددها كثير. وأنا كان عندي كلاب للصيد وبندقية فقتلت بعضًا من هذه الحيوانات، ولحمها لا يأكلهُ غير الهنود، وصوفها ناعم كالحرير، يصنعون

منهُ البرانيط، أي الشبقات، وهو شبه التفتيك[١] لكن لونهُ عسلي كلون الغزال،[٢] وفي بطن هذا الحيوان يوجد حجر البازهر بين كُلْيتيه، فيخرجونهُ ويبيعونه بثمن غالٍ لأنه نافع للسموم.[٣]

---

[١] الشبقة: هي البرنيطة، ولعلها تعريب chapeau أمَّا التفتيك فهو نوع من الصوف الناعم.

[٢] قد جاء وصف هذا الحيوان المسمى la Vicuna أو le Guanaco في كثير من الأسفار الأمركيَّة، وكانوا يستخدمونه لنقل المعادن في الطرق التي يتعذر على الدواب سلوكها.

[٣] البازهر أو البازهر كلمة فارسيَّة معناه: الترياق «من پاو: نظف، وزهر: سم»، وقد اشْتَهر هذا الدواء بين أطباء العرب وامتدت شهرته مع اسمه إلى المغرب، فيقال: Bezuar باللغة البرتغالية أو Bezoard بالأفرنسية، قال التيفاشي: «هذا الحجر بأيدي الناس صنفان، أحدهما: حيواني، والآخر: معدني، ومعدنهُ بين جزيرة ابن عمر والموصل، وهو هناك كثير، ويوجد منهُ حجارة كبار، وهو حجر رخو أبيض الحكاكة. وأما الحيواني فهو المقصود بالكلام في هذا الحجر، والباب هو حجر خفيف هش أصفر منقط نقطًا خفيفة، وهو ذو طبقات بعضها على بعض، وينحلُّ سريعًا إذا حُكَّ، ومحكُّهُ إلى البياض، وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل، يؤتى به من بلاد فارس من تخوم الصين. والحيوان الذي يوجد فيه البازهر هو الأيل الذي يكون بتلك البلاد. واسمه عجمي، أصله في لغة الفرس: باكزهر؛ أي منظف السم من الجسد. وخواصه النفع من ذوات السموم بأجمعها، وهو يخج السم بالعرق ويخلص من الموت … إلخ.» وقد اعتُبر في القرون الماضية كأعظم الأدوية، وذلك خرافة لم يثبتها العلم.

السفر إلى شبنكاي أو أبانكاي[١]

وبعد ثلاثة أيام دخلنا إلى مزرعة قصب السكر وتُسمى الأرض شبنكاي. وهذه الأرض هي لليسوعية، ويُخرِجون منها كل سنة ثلاثين ألف خندكاري من السكر. والفلاحون الذين يفلحون كلهم عبيد سود ويشتغلون في عمل السكر.

ومنها سرنا إلى البلدة المذكورة بعد ثلاثة أيام فوصلنا إليها، وهذه البلدة كان يسكنها ملك الهنود المسمى وازاوليا أنيكا، أخو الملك واسارينكا المذكور، فلما وصلنا قريبًا من البلد وسمع الرهبان اليسوعية خرجوا أمامي وأخذوني إلى ديرهم بالترحيب. وهذا الدير كان قديمًا قصر الملك المذكور، ووُسِّع هذا الدير مع بستانه قدر نصف بلد. ودير الراهبات أيضًا هو داخل القصر. ووجدنا هناك من الحجارة المنحوتة من الهنود القدماء بغير آلة الحجارين الحديدية، وهي مشغولة بغاية الرستاق.[٢]

وسكان هذه البلدة يومئذٍ أربعة آلاف بيت إسبنيوليون، وثلاثة آلاف بيت هنود. ولهم أسقف رجل صالح مع بقية طوائف رهبان ومدارس لأجل أولاد السبنيولية، ومدرسة أخرى بناها اليسوعية لأجل أولاد الهنود. ومن قبل أن أجوز في هذه البلدة بمقدار ميل كان خرج لاستقبالي قسيسان من طرف الأسقف وحاكم البلد مع اليسوعية المذكورين، وأخذوني إلى البلد بمقدار ميل. والأسقف كان قاصدًا أني أنزل في داره لكن اليسوعية ما تركوني بل

[١] Abancay.

[٢] الرستاق أو الرزداق السطر من النخل والصف من الناس، معرب راست التي معناها: الخط القويم، بالفارسيَّة. وتأتي في اللغة العاميَّة بمعنى ترتيب ونظام.

أنزلوني عندهم. وقصد حاكم البلد أن ينزلني في داره لكني أبيت من الأسقف ومن الحاكم الذي كان صاحبي وجئنا من إسبانية رفقة. وهذا الحاكم لما وصلنا إلى ليما تجوز «تزوَّج» مع بنت أعطتهُ نقدًا مائة وخمسين ألف غرش كعادة بلاد النصارى أن البنت تعطي نقدًا للرجل حسب حالها، والأشراف كشرفهم. وفي اليوم الثاني جاء أسقف البلد زارني، وجاء أيضًا باقي الأشراف ورؤساء الديورة. ومن بعد أربعة أيام خرجت أنا واثنان من الرهبان اليسوعية في عرباني وأوفيت زيارتهم.

وصف أبانكاي

ثم طلبوا مني أن أقدس في الكنيسة الكبيرة في حضرة الأسقف والقسوس والأعيان وباقي العوام، فقدست لهم قداسًا باللسان السرياني الشرقي. وأيضًا أهل الديورة والكنائس بقوا يجيئون يأخذوني حتى أقدس عندهم، وكان عندي شماسان يخدمان قداسي، وكنت عندهم بعز وكرامة، وكانوا يهدونني هدايا من ديورة الراهبات، ومن غير أماكن. وأرسل لي ديوان القسوس الذي للكنيسة الكبيرة هدية لائقة، وأرسل لي أيضًا أسقف البلد هدية بذلك المقدار. وكان بعض أصحاب أعطاني عرباني لأخرج إلى خارج البلد وأتفرج على عمائر الهنود القدماء، فمن جملة ما نظرت قبور الهنود الذين في زمان كفرهم كانوا يدفنون ميتهم على وجه الأرض ويعمرون فوقه قبرًا مرتفعًا جدًّا بعلو ذراعين، وعرضه ذراع ونصف، وطوله ثلاثة أذعر. وهذه القبور منفردة عن بعضها كل واحد على جانب.

وفي تلك الأيام صار زلزلة عظيمة خارج البلد على نحو فرسخين، وكان هناك جبل منصوب على نهر جارٍ فسقط الجبل من تلك الزلزلة في وسط النهر وسد جريان الماء؛ فطاف ماء النهر على الأرض وأهلك مزارع ثلاث قرًى، وفي سقطة الجبل في ذلك الحين وتلك الساعة صارت أيضًا زلزلة في بلدة ليما، وخرج الناس من البلدة لخوفهم لأنه سقطت منازل كثيرة مع بعضها كنائس.

وفي ذلك الحين جرى أمر من ملك إسبانية في عزل الوزير صاحبي المذكور وأنا بقيت خمسة أشهر في هذه البلد الكوسكو المذكورة؛ وكان ذلك بسبب عرض الشتاء، وزادت الأنهر العديمة المجاز.

هنود بوقرتنبو[1]

ثم بعد هذا الزمان المذكور خرجت من تلك البلدة متوجهًا إلى بلدة تسمى بوقرتنبو، وبعد سفر ستة أيام وصلنا إليها، وفي الستة الأيام المذكورة كنت أنام كل ليلة في ضيعة. وعند دخولي إلى هذه البلدة خرج بعض أناس مع رهبان مار عبد الأحد وحاكم البلد لملاقاتي، فأخذوني إلى داخل البلد بالترحيب، فنزلت في بيت الحاكم؛ لأنه كان خادم الوزير صاحبي. وهذه البلدة هي ستر يعني حدًّا ما بين الهنود الكفرة والسبنيولية. والهنود يأخذون الرجال والنساء والأطفال إلى أرضهم ويستعبدونهم، ولما يكون عندهم عيد أم عزيمة يذبحون واحدًا من السبنيولية ويشوونه ويأكلونه. وعند هؤلاء الهنود يوجد جنس حشيش إذا علكوهُ يُسكرهم ويعطيهم شجاعة وقوة كشراب الخمر، يسمى ذلك الحشيش كوكا Coca،[2] وما يوجد عندهم لا قمح ولا شعير سوى درر مصر «الذرة»،[3] ويجعلون من هذه الدرر بوزة ويشربونها فتسكرهم كالعرق. وهؤلاء الهنود كثيرو العدد، وشديدو القوة، وما يقدر السبنيولية أن يقاوموهم لأنهم ساكنون في جبال شامخة، وعليهم أمير مدبر، وهو الذي يحكم عليهم.

---

[1] Paucartambo.

[2] الكوكا: حشيشة لها خاصة معروفة لتقوية أعضاء الجسم، وقد اشْتَهر الآن استعمالها في العقاقير. قال أحد الرَّحَلة المعاصرين لكاتبنا: إن الوطني في ضواحي كوسكو يمتنع عن الطعام ولا يمتنع عن مضغ حشيشة الكوكا؛ فإنه يجد فيها طعامًا وشرابًا ودواءً.

[3] درر — ولعلها درا مصر: اسم للذرة على لسان العوام حتى في أيامنا، ولعل ذلك لاشتهار الذرة المصرية.

معادن الفضة

ثم بعد ثلاثة أيام خرجت من هذه البلدة متوجهًا إلى معدن الفضة المسمى قندونوما Condonoma، وبعد يومين وصلنا إليه. فمن زيادة البرد وشدة الزمهرير ما قدرت أمكث هناك غير ثلاثة أيام، وبعد ذلك رحت إلى معدن آخر يسمى قليوما، وهو درب يوم عند جانب قرية صغيرة يخرجون هناك الفضة. وفيها تفرجنا على إخراج الفضة، وكيف يطحنون الحجارة مثل التراب، ويجعلونها في الماء كالطين، وبعد ذلك يمزجون فيه الزئبق، وطول النهار يحركونه مقدار عشرة أيام، أو اثني عشر يومًا، والزئبق يجمع الفضة ويلتصق بها. ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه في حوض مجلَّد بجلود البقر، والماء يأخذ التراب ويوديه، والفضة ترسخ «ترسب» إلى أسفل. هذه الصنعة تفرجت عليها عيانًا.

ومن هناك خرجت إلى قرية تسمى لانبا Lampa وبعد يومين وصلت إليها ونظرت هناك الهنود يعمرون كنيسة جديدة، وقسيسهم إسبنيولي، له عندهم مقدار ثلاثين سنة. وهذا القسيس غنيٌّ جدًّا، فخرج «صرف» على عمارة تلك الكنيسة مائتي ألف غرش. ومكثت تلك الليلة هناك، وثاني يوم رحت إلى معدن آخر يسمى بونو.

مقتل أحد المتمولين ظلمًا

وصاحب المعدن بونو رجل غني اسمهُ دون خوسيف سلسيدو يعني يوسف من مدينة سيويليا، وكان يعطي عشور الفضة إلى الملك مليونين وسبعمائة ألف غرش. وذكروا لنا أن هذا الرجل كان يخرج من هذا المعدن كل يوم ستة آلاف غرش، فحسدهُ بعض أعدائه وأقاموا عليه بهتانًا وشهدوا زورًا قائلين: إن هذا قد اتفق مع أناس بيض ويريد يصير حاكمًا في هذه البلدة. فكتبوا إلى الوزير عن ذلك، فقام الوزير وجاء إليه، إلى جبل يسمى معادن بونو، حيث كان سكن هذا الرجل المذكور ومسكه وأخذه معه إلى بلد ليما، وشنق من أصحاب هذا الرجل بعض أناس، وضبط أموالهم، كما ضبط هذا المعدن للملك، وضبط أيضًا الحجارة التي كانوا طالعوها من المعدن ليخرجوا فضتها، وكان وزنها عشرة آلاف قنطار. وحبسهُ الوزير في السجن وألزموا عليه القتل، فطلب من الوزير قائلًا: اعرضوا أمري إلى إسبانية للملك، فإن أمر بقتلي فاقتلوني، وإن أمر بإعتاقي فأعتقوني، وأنا أفي جميع ما قرَّيت به، وها أنا في حبسكم مضبوط. فلم يسمع الوزير والديوان لأقواله، بل سجلوا عليه القتل من طمعهم. وكانت الضيع والبلاد من الفقراء والرهبان والراهبات والأيتام والأرامل يستغيثون لله لأجل خلاصه؛ لأنه كان في كل عام يفرق من الحسنة ثمانين ألف غرش. وأمر الوزير القاسي القلب بخنقه نصف الليل، وبعد قتله أرسلوا معلمين ليذوبوا تلك الحجارة ويطالعوا منها الفضة، فلما ألقوها في النار ظهرت إشارة الله وتحولت تلك الفضة إلى رماد، وصار ذلك عجبًا عظيمًا للناظرين والسامعين. وأما المعدن الذي كان يخرج منه حجارة الفضة فطاف بالماء وغرق وعدموه، وصارت هذه أعجوبة ثانية. وأما الوزير الذي قتله ظلمًا فبعد خمسة عشر يومًا بينما هو داخل إلى مخدعه تراءى له ذلك المقتول ظلمًا كأنه واقفٌ على الباب، فلما نظرهُ اعتراهُ الخوف والرجفة ودخل مرتعدًا من ذلك المنظر؛ فسألته امرأته السبب، فحكى لها ما نظر ثم وقع في الفراش مريضًا، وبعد ستة أيام مات، وصارت

هذه أيضًا أعجوبة ثالثة أمام الحاضرين والسامعين. والقاضي الذي سجل قتله انشلت بعد أيام قليلة يداه ورجلاه. وهذه صارت عجيبة رابعة؛ لأن هذا الرجل المقتول كان ذا خيرات وأنعام مثلما سبقنا في القول، وخيراته لا توصف، وكان أبًا للأيتام والأرامل، وشفوقًا على الفقراء والمساكين، ومفتقدًا الديورة بكل الصدقات والنذورة، وكان ينقد البنات الفقيرات ويزوجهن. ولم يزل طول عمره في عمل الخيرات حتى إنه في جمعة الآلام أرسل مع أخيه إلى بلد الكوسكو سبعين ألف غرش ليقسمها على الكنائس والفقراء.

ولما كان هذا الرجل في الحياة قبلما يُقتل بمدة قليلة أقبل رجل فقير ذو عيال كان قد رافقه في المركب لما جاء من إسبانية؛ فعرَّفه عن أقنومه وعرض عليه حال فقره وكثرة عياله، فلما علم أن هذا كان رفيقه تحنن عليه وزعق «دعا» وكيل ماله وأعطاهُ مفاتيح الخزنة، وقال له: خذ هذا الفقير إلى الخزينة واتركه يأخذ قدر ما يريد من بارات الفضة. فلما حصل ذلك المسكين في الخزينة أخذ اثنتي عشرة بارة،[1] وكل بارة تسوى ألف وثلاثمائة غرش، وأخرجها خارج المخزن، وراح يستكثر بخير ذلك الغني، فسأل الغني وكيل ماله قائلًا: كم بارة فضة أخذ هذا الفقير. فقال له: اثنتي عشرة. فرجع وقال للفقير: يا مسكين لماذا لم تأخذ أزيد من هذا العدد؟ ثم إنه استكثر بخيره وانصرف. وله على هذا المثال عمل خيرات زائدة الوصف. وكان له أخ مختفٍ، فلمَّا جاء وزير آخر ليحكم في ذلك البلد عرض على الملك أمر الرجل المقتول ظلمًا، فصعب ذلك على الملك والديوان؛ لأنه كان له نجمٌ سعيد ينفع الفقراء والمساكين، وخزينة الملك. فخرج أمر من الملك بالإنعام على أخيه المختفي، وأن يعطيه الوزير خمسين ألف غرش من خزينة الملك وأمرهُ أن يرجع يفتح معدن أخيه.

فأمَّا أنا فما لحقت ذلك المقتول في أيام حياته، لكن تصاحبت مع أخيه الذي يسمى دون كسبار دو سلسيدو. وهذا كان يجاهد مع مائة نفر ليفرغوا الماء من المعدن. وقال لي ذات يوم: يا صاحب، لماذا تروح إلى إسبانية بالعجل، اصبر هذه السنة حتى ننظف المعدن وأجهزك من الفضة بالذي يقسم الله. لكن أنا ما قدرت بسبب الوزير صاحبي المعزول الذي كان راجعًا إلى إسبانية، وهذا صار السبب المانع.

[1] بارة: كلمة فارسية بمعنى: القطع. ثم جاءت بمعنى الهدية. لعلَّه أراد البدرة من المال.

سبك الفضة

أما نحن فبعد أن خرجنا من هذا المعدن قصدنا بلدةً تسمَّى جكويت Chuchuito، وكان الحاكم هناك ابن أخي كاتب الملك، وكان رافقنا من إسبانية، وهو يسمى دون أندريس ده برناجيا، من بلاد بسكايا. ومن بعد أربعة أيام وصلنا إلى البلدة، وفيها للملك بيت لسبك الفضة، ومعلمون ووكلاء من جانبه لجمع الفضة التي تخرج من المعادن المحيطة بهذه البلدة، فهم يأتون بالفضة ويذيبونها ويسكبونها ويعملونها بارات ويدمغونها بختم الملك. وإن حمل أحد حمل فضة رملية ما دخلت إلى بيت المسبك تضبط وتودع في بيت الملك.

سكان البلاد الأقدمون

وعن جانب هذه البلدة يوجد بحيرة استدارتها ستون فرسخًا،[1] وذكروا لنا أن الهنود ألقوا في هذه البحيرة جنزيرًا من الذهب كان يخص الملك أنيكا المذكور لما قتله السبنيولية، وذلك الجنزير كان يحملهُ أربعة آلاف رجل، وعندما كان يعمل الملك لعبًا كانوا يمدُّون هذا الجنزير على الأرض فيحيط بالبلد، فكان يدخل الأكابر ويلعبون ومن يقع منهم على الجنزير أو خارجًا عنه كانوا يضحكون عليه، والآن لا يعلم السبنيولية في أي جانب من البحيرة ألقوه.

ولم يكن لهؤلاء الهنود في ذلك الزمان دنانير، لكن كانوا يتعاملون ويبدلون شيئًا بشيء، وكان في هذه البحيرة جزيرة كبرها فرسخان يسكنها هنود كَفَرةَ يعبدون جبلًا منصوبًا أمامهم يسمى الجبل الأحمر، وما كان يقدر أحد يجوز إليهم لأن عندهم آلة الحرب كرماح وسهام ومقاليع. وكانوا يخرجون إلى البر السالك ويأسرون السبنيولية ويأخذون البغال الذكورة ليذبحوها ويأكلوها. فأمر هذا الوزير المذكور صاحبي أن يجتمع حكام القرى الذين في تلك النواحي، فاجتمعوا مقدار أربعة آلاف نفس، وعملوا أربعين كلكًا، وجعلوا فيهم أكياسًا مملوءة ترابًا، وأيضًا بعض أفراس، ثم أخذوا في أيديهم الأسلحة وجازوا في البحيرة على الكلك، فلما اقتربوا من الأرض وقف هنود الجزيرة مقابلهم للحرب، وكانوا يرشقونهم بالسهام والجنود السبنيولية يضربونهم بالرصاص، وألقوا أكياس التراب على ساحل الجزيرة لتقدر الخيل تخرج إلى البر؛ لأن هناك وحلًا شديدًا. فلما وصلوا إلى الأرض ركبوا خيلهم وركب أيضًا الفرسان، واجتمعوا على الهنود وكسروهم، وقتلوا منهم كثيرًا،

---

[1] تسمى هذه البحيرة تيتيكاكا Titicaca.

واستأسروا الباقي، وعددهم ثلاثمائة هندي غير النساء والأطفال. وقد مات في الحرب منهم ستمائة نفس، ثم أخرجوهم من تلك الجزيرة وأتوا بهم إلى بلد الكوسكو، فطلب الوزير من أسقف البلد أن يلقنوا هؤلاء الهنود ويعلموهم قواعد إيمان المسيح ويعمدوهم ويقسموهم على البلاد، أما أنا فبقيت في هذا البلد ثمانية أيام.

إطلاق سبيل بعض المسجونين

معدن مرمر

ثم خرجتُ قاصدًا قرية تبعد يومين تسمى، كوماتا، فيها دير لرهبان مار أغسطينوس، وفيه أيقونة سيدتنا مريم العذراء، تسمى كوياكاوانا، تعمل معجزات عظيمة يأتون إليها من كل جانب ليزوروها. فرحت تباركت من تلك الملكة الجليلة وزرتها، ومن هناك خرجت قاصدًا قرية تسمى بارنيكيلاوكان، فتبعني أربعة لصوص ليسرقوا خيلي وبغالي، فأعمت هذه العذراء بصائرهم، فما قدرهم الله على قصدهم. وكان حاكم تلك القرية صديقي اسمه دون إيليا باسمي، فخرج لاستقبالي مع بعض قسوس وعوام، وأخذوني إلى بيته. فثاني يوم جاء قسيس الهنود عندي وحكى لي قائلًا: إن في حبس هذا الحاكم سبعة رجال هنود محبوسين على شيء قليل. فقمت نزلت إلى الحبس وفي يدي ورقة كتبت عليها أساميهم، وناديت الحبَّاس أن يفتح الباب ففتحه، وناديتهم واحدًا واحدًا إلى خارج الحبس وأعتقتهم. وفيما بعد سمع الحاكم بما صار فقال لي: يكون فدى رأسك وشرفتنا بقدومك.

وقرب هذه القرية بنصف فرسخ جبل عالٍ به معدن حجر مرمر كالبلور، فقصد هذا الحاكم أن يعمل من هذا المرمر عمارة حمام كمثل قبة صغيرة مركبة من هذه الحجارة، يجعلونها في صناديق ويرسلونها إلى ملك إسبانية؛ لكنه توفي قبل ما يكمل عمله.

المال المجموع ظلمًا

وبعد ثمانية أيام خرجت من هذه البلدة المذكورة قاصدًا بلدًا يسمى سيكاسيك Sicasica، وفي ذلك الصقع كان يحكم أحد غلمان الوزير صاحبي، وكنت ديَّنته ألفي غرش في بلد ليما، فخرج لاستقبالي. وكان في جانب الدرب بحيرة قدرها نصف فرسخ، وبقينا نتصيد منها بعض أجناس الطيور إلى بعد العصر. ثم إننا دخلنا إلى البلدة المذكورة بغاية الإكرام، ونزلنا في دار الحاكم، وجاء جميع الكهنة والعوام لزيارتي. وسكان هذه البلدة هنود وإسبنيولية، وذكروا لنا عن قسيس كان في تلك البلدة، وكان قد مات منذ أربع سنين، فهذا القسيس كان خوريًّا متفردًا في معبد تلك البلدة مدة اثنتين وعشرين سنة، وكان قد جمع له أموالًا كثيرة من الظلم، فقبل مماته اعترف إلى الكاهن وعمل وصيته قائلًا إنه طمر تحت فرشته خابيتين مملوءتين الواحدة فضة والأخرى ذهبًا، وأيضًا عمل وصيته على يد القاضي أن هذا المال يكون ميراثًا لأخيه وأخته. وأنا كنت أعرف أخاه، وهو قسيس يسمى دون خوزيف؛ يعني يوسف، وأخته تسمى دونيا إينيس. فبعد أن مات أخرجوه من البيت وسكروا الباب وختموه، فبعد ما دفنوه أتى أصحاب الشرع والحكام ليخرجوا المال المذكور، فلما حفروا المكان وجدوا الخابيتين مملوءتين دمًا لا يوجد فيهما ولا دينار واحد. فكل الذين كانوا حاضرين تعجبوا من هذه العجيبة؛ لأن عدالة الله ظهرت هكذا في المال المجموع ظلمًا. فلما علم بذلك مطران البلد أرسل يوصيهم أن يستروا ويخفوا هذا المثل الرديء، لكن صار له اهتمام عظيم عند الناس.

السفر إلى أورورو وبوتوسي

وأنا بعد ثمانية أيام خرجت متوجهًا إلى بلدة تسمى أورورو Oruro، وسافرنا في طريق عسر بتعب زائد. ومن بعد خمسة أيام وصلنا إلى البلد، وخرج لاستقبالنا الرهبان اليسوعية، وأنزلونا عندهم. كان حاكم البلد يسمى دون ألونصو ديل كورال، وهو رجل خسيس ما كان يأكل إلا كروش البقر. وخارجًا عن هذه البلاد ثلاثة فراسخ يوجد معدن فضة غني جدًّا؛ لأن هذه الفضة يستخرجونها من غير زئبق، وذلك هو ضد القانون في جميع المعادن، ولا يوجد أصلح من هذه الفضة. ثم إني رحت إلى المعدن المذكور، واشتريت من الفضة الرملية مقدار خمسمائة غرش. وبعد ثمانية أيام سافرت قاصدًا بلد بوتوسي Potosi، وبتنا أول مرحلة في قرية هنود، وكان عندي أمر أن يعطوني بغالًا من قرية إلى قرية، وكنت أغرم الكروة مثلما يغرم الملك، فناديت شيخ الهنود أن يحضر لي دواب، وناولته الكراء بشرط أن يحضر لي الدواب بعد نصف الليل بساعة. وحان الوقت وأشرق الصبح، وطلع النهار وما أحضر الدواب لنرحل، فأرسلت أفتش عليه فأتوني به سكران، فكنت أكلمهُ باللسان السبنيولي وهو يجاوبني باللسان الهندي، فأمرت أن يشدوه بعمود البيت ويجلدوه، فمن أول ضربة السياط طلب أن يتركوه، وتكلم بالسبنيولي قائلًا إن الدواب مربوطة عندهُ في الدار. فسألته لماذا ما تكلم في السبنيولي إلى وقت ما ذاق السياط؟ فقال لي: نحن معشر الهنود لا نطاوع السبنيولية إن لم يضربونا.

ثم رحت من هناك ووصلت إلى مكان يخرج منه ماء سخن ورائحة ماء الكبريت، ويأتي بعض المرضى من أماكن مختلفة ليغتسلوا فيه، وبعد اغتسالهم يشفون من دائهم،

واسم هذا المكان طاراپاپا. ومن بعد ستة أيام وصلنا إلى بلدة بوتوسي المذكورة فجاء الحاكم خارجًا عن البلد نحو ميل مع عشرة رجال من جماعته واستقبلني بغاية الإكرام.

وهذا الحاكم هو من أقرباء امرأة الوزير أوصاه بي في مكاتيبهِ. فنزلت في دير اليسوعية وجاء بعض أناس زاروني وأنا أيضًا رحت زرتهم.

زيارة السكَّتخانة ومعدن الفضة

ثم في ذات يوم رحت إلى البيت الذي يضربون فيه سكة الدنانير من غروش وأنصاف وأرباع. وفي هذا البيت السكتخانة أربعون عبدًا يشتغلون واثنا عشر رجلًا إسبنيوليًّا، فرأينا الغروش مكومة مثل التل في جانب والأنصاف في جانب وأنصاف الأرباع في جانب مكومة على الأرض، ويدوسونها بأرجلهم مثل ما يدوسون التراب الذي لا قيمة له.

وعن جانب هذه البلدة يوجد جبل المعدن، وهذا الجبل معروف في كل الدنيا لزيادة غناه لأنهم قد أخرجوا منه أموالًا لا يحصي عددها منذ مائة وأربعين عامًا من أربعة أطرافه، وقد أحاطوه وحفروه وانحدروا إلى أسفله ليخرجوا الفضة. وقد جعلوا لهذا الجبل عواميد من خشب سندًا من كل جانب؛ لئلا يسقط الجبل؛ لأنه من خارج يبان صحيحًا لكنهُ فارغ من داخل. ويشتغل في باطنه في قطع الحجارة مقدار سبعمائة هندي لأناس اشتروا لهم حصة من الملك؛ لأن لكل معدنجي بعض هنود معينين ليشتغلوا في معدنه، وفي أمر الملك مرسوم أن يعطوا من كل قرى الهنود رجالًا لقطع المعادن، والقانون هو من كل خمسة رجال يطلع واحد للشغل المذكور، وإذا لم يرضَ حكام القرى إرسالهم فالوزير يحرمهم ويعزلهم، ولَمَّا يجيء هؤلاء الهنود إلى بلد بوتوسي يقسمهم الحاكم على المعادن.

وصف استخراج الفضة

وفي هذه البلدة سبعة وثلاثون طاحونًا يطحنون فيها حجارة الفضة ليلًا ونهارًا، ما عدا أيام الآحاد والأعياد، وبعدما يطحنون الحجارة ناعمًا يأخذون ذلك التراب المطحون مقدار خمسين قنطارًا ويجعلونه كومةً ثم يجبلونه بالماء مثل ما ذكرنا سابقًا، ويضيفون إليه الزئبق قدر الحاجة، ثم يجبلونه ويحركونه بالمجارف عدة مرات، وإن طلب زئبقًا أزيد فيطعمونه حتى يكمل، فإن كانت طبيعته باردة فيخلطون فيه نحاسًا حتى يسخن، وإن كانت طبيعته سخنة فيضيفون إليه الرصاص حتى يبرد، والواسطة التي بها يفرقون هل هو سخن أم بارد هو أنهم يأخذون منه في شقف فخار ويغسلونه بالماء حتى يروح الطين فتبقى الفضة والزئبق فيلمسه «يدلكه» بإصبعه على شقف الفخار المذكور، فإذا تفرفط «تفرَّط» فهو سخن، وإذا انطلس «لصق» فهو بارد، وإذا كان مطبوخًا ومعتدلًا كاملًا فيجيء ممتدًّا على الفخار ومبرقًا. ثم يجعلونه في حوض ماء والماء جارٍ عليه يحركونه بالماء بصنعة، فالفضة مع الزئبق يرسخان إلى أسفل، والتراب يأخذه الماء إلى خارج، فلما يكملون غسل تلك الجبلة كلها يسدون ويقطعون الماء الفائض عليه، وينظفون الحوض من الماء، ويستخرجون تلك الفضة والزئبق الراكنين جميعًا، ثم يجعلونه في أكياس من جنفاص يعلقونها، وتحت هذه الأكياس صناديق مجلدة من جلود البقر، فيهرب الزئبق من الأكياس، ويقع في تلك الصناديق المجلدة، وتبقى الفضة خالصة فقط في الأكياس مثل قوالب رءوس السكر. وجميع هذه البضائع اللازمة لعمل استخراج الفضة تدور دواليبها بالماء مثل الطواحين وغيرها.

وأنا كان لي رجل صديق صاحب معدن، فحكى لي عن والده قائلًا إنه كان لوالده معدن في هذا الجبل لكن كان قليل الفضة، فأمر الفعَلة الهنود أن يردموه ويسدوه بتلك الحجارة التي أخرجوها منه؛ ففعلوا كما أمرهم وسدوه، وبدءوا يشتغلون في غير جانب.

فمن بعد سبع وثلاثين سنة راح صاحبي هذا المذكور وفتح ذلك المعدن فوجد تلك الحجارة التي كانت غير نافعة قد تحولت وتبدلت في تلك الأيام، واستوت كالثمرة؛ فأخرجوها وأخذوا فضتها، فأعطت كل واحد ثلاثين؛ لأن إقليم جبل الفضة هذا مسلط عليه نجم يسمى عطارد، وهذا النجم يطبخ الفضة.[١]

ورأيت في هذه البلدة أربعة رجال أغنياء جدًّا، هؤلاء هم الذين يشغلون السكتخانة لقطع الدنانير، وكل جمعة يشغل أحدهم الكرخانة، ويقطع في الجمعة مائتي ألف غرش وأزيد؛ لأنهم يشترون الفضة من أصحاب المعادن ويقطعونها غروشًا. وهم يشترون الفضة الوزنة التي هي مائة مثقال باثني عشر غرشًا ونصف، فلما يسكُّوها تصير ستة عشر غرشًا، ويعطون كل سنة من هذه المعادن عشورًا للملك مليونين ونصفًا. وخارج هذا البلدة بحيرة ماء ذكروا أن في بعض السنين طافت على البلدة وهدمت بيوتًا كثيرة لكن الناس سلموا. وأنا بقيت في هذه البلدة خمسة وأربعين يومًا.

[١] هذا من الخرافات القديمة.

السفر إلى جوكيساكا[1]

وخرجت من هناك متوجهًا إلى بلدة تسمى جوكز، وفي اللسان الهندي تسمى جوكيساكا،[2] فأول يوم وصلنا إلى مكان فيه حمامات ماء سخن خلقة، يخرج من الأرض يسميه السبنيولية لوس بانيوس كالينتوس Los Bagnos Calientes، فبتُّ هناك تلك الليلة، وثاني يوم وصلت إلى البلدة المذكورة، فخرج اليسوعية خارج البلد لاستقبالي وأخذوني إلى ديرهم. وفي هذه البلدة يوجد ديوان الملك ومدبر البلاد لكنهم تحت يد وزير ليما. وفيها مطران له معبور في كل سنة مائة وعشرون ألف غرش، وهذا كان سابقًا أسقفًا على بلدة أكوماتاكا المذكورة، وكان قد أهدانا هدية في أسقفيته، وبعد ذلك أنعم الملك عليه وأعطاه هذه المطرانية، فثاني يوم رحت قابلتهُ فأكرمني إكرامًا زائدًا. وأما رئيس ديوان البلد فهو رجل كاهن، وكان صاحبي فأكرمني أيضًا بواسطة الوزير صاحبي؛ لأنه كان صديقه، وكان يسمى دون برتلماوس ده باويدا، فأرسل من قبلِهِ رجلًا ليزورني، وجاء أيضًا من جانب المطران قسيسان زاراني، وبعد ثمانية أيام طلع برفقتي راهبان من دير اليسوعية فزرت الذين زاروني من القسوس والرهبان والعوام.

وبعد اثني عشر يومًا طلب مني المطران أن أقدس في الكنيسة الكبيرة يوم عيد الرسل، وكان عندي آلة القداس، يعني البدلة وغير أشياء كان أنعم علي بها البابا أكليمنضوس التاسع. ومن بعد ذلك عزمني رئيس ديوان الملك لأقدس في كنيسة الديوان التي هي في

[1] Chuquisaca.

[2] وتسمَّى الآن لاباز La Paz.

سرايته، وأهداني هدية أزيد من هدية المطران. ومن بعد ذلك كان رؤساء الديورة يدعونني أن أقدس في كنائسهم، وفي ديورة الراهبات. وكان لي هناك رجل صديق من أهل الديوان يسمى دون خوان كونصالس، وهذا رافقني من إسبانية، ففي ذلك الوقت جاء أمر من الملك إلى هذا الرجل المبارك أن يروح إلى ليما ويأخذ محاسبة من الوزير المعزول الذي هو صاحبي.

وكان لأحد الرهبان اليسوعية أخت مريضة، فطلب مني أن أروح أزورها، وإن كنت أعلم بشيء من أحوال الطب فأحكِّمها، فرحت زرتها، وعالجتها ببعض أجزاء مناسبة لعلتها، وسقيتها درهمًا من رماد العقاريق،[٣] فبقدرة الله تعالى تعافت. وكانت أيضًا راهبة أخرى في الدير مريضة، فأرسل إليَّ المطران دستورًا حتى أعبر أعالجها؛ لأنه بغير إجازة لا يقدر أحد أن يجتاز باب الدير؛ فدخلت الدير وعالجت الراهبة؛ فبحكمة الله وعنايته طابت وتعافت؛ فصار غوشة «حركة» عظيمة في البلد، وكانوا يريدون أن أسكن عندهم في البلد، فأرادوا أن يعطوني علوفة خمسمائة غرش في السنة، فقلت لهم: ليس هذا ممكنًا.

[٣] العقاريق جمع عقروق لفظة سريانية ܥܩܘܪܩܐ معناها: الضفادع.

توكومان[1] وبونس إيرس[2]

وكان في الدير راهب يسوعي وكيل متصرف على بلاد تسمى توكمان،[3] ولهم هناك ديورة، وأسقف تلك البلدة كان صاحبي ورفيقي من إسبانية، فطلب مني الراهب أن أروح إلى تلك البلاد، وهي بعيدة خمسمائة فرسخ عن بلد جوكز. وتروح في هذا الدرب كلكات وينصبون لها أقلاع، فالريح توديهم. ووعدني إن طاوعته ورحت معه وجبرت في خاطره يعطيني ألف بغل؛ لأن المواشي في تلك البلاد شيء كثير وعديمة القيمة في الجبال، وهي وحشية؛

[1] Tucuman.

[2] Buenos Aires.

[3] يريد مقاطعة توكومان وبونس إيرس التي كانت تدعى رسالة الباراغواي الشهيرة في تاريخ العالم الجديد، وهناك جمع المرسلون اليسوعيون عددًا من الهنود المتوحشين ففكوا رقابهم من أسر الرق واكتسبوهم إلى الإنسانية بعد أن كانوا يعيشون عيشة البهائم، وهذابوا عقولهم وأدَّبوا معيشتهم، وعلموهم مبادئ الحضارة، والاهتمام بحاجات الحياة، من حرث وزرع وحصد، والارتداء بالثياب، ودرَّبوهم على المعارف والفنون اليدويَّة وغيرها؛ فأصبحت هيئة اجتماعيَّة قائمة بذاتها كاملة الأعضاء، سعيدة المعيشة، لا يُعرف لها مثيل في الآداب العمومية والفردية. قال موراتوري: هذه هي المسيحيَّة السعيدة بالحقيقة. وقال بوفون (Hist. Nat. T. XX): لا شيء أشرف للدين ممَّا توصَّل إليه المرسلون اليسوعيون بتفانيهم؛ فمدنوا أممًا متوحشة، وأسسوا هيئة اجتماعيَّة كاملة، ولم يكن سلاحهم إلا الفضيلة. وقال روبرتسون البروتستنتي (Hist. Charles V, T.I): قد بيَّن اليسوعيون قدرتهم على الخير بنوع خاص في العالم الجديد؛ فإن فاتحي هذه البلاد كانت رغبتهم في المكسب والنهب والاستيلاء والفتك، ولم تكن غاية مرسلي الباراغواي إلا الإنسانيَّة. وقال أخيرًا فولتير (Essai sur les moeurs, X p. 56): إن تأسيس رسالة البارغواي بواسطة اليسوعيين يبيِّن بنوع ما أسمى درجات الإنسانيَّة.

لكن امتنعت عن الرواح معه بسبب طول المسافة، وأيضًا في تلك الجبال يوجد هنود كفرة، ولخوفي منهم قصرت عن الرواح. وهذا الإقليم واسع جدًّا، وهو أكبر من الثلاثة الأقاليم الأخر، غني بمعادن الفضة والذهب والجواهر، لكن سكانه قليلون، وفيه ناحية تسمى سانتافه santa Fe، ومن هناك يخرج الزمرد. وهذه الأسقفية لها أرض خمسمائة فرسخ. وعن جانب هذه البلدة يوجد كورة وهي أسكلة بوناس إيرس Buenos Aires، وهذه البلدة هي على البحر المحيط، قريبة من بلاد البرازيل التي من حكم البورتكيز. وفي هذه البلدة بوناس إيرس المذكورة يزرعون حشيشًا يسمى إيربا ديال بايل كواي، وجميع المتولدين في تلك البلاد يشربون من الحشيش المذكور مغليًّا مع سكر بماء سخن، فإذا شرب الإنسان منه فنجانًا واحدًا ينفعهُ، وإذا أراد أن يتقيأ يشرب منه أكثر فيدلق جميع ما عنده من العفونات، وهذا سالك بين جميع الناس في تلك البلاد كمثل القهوة في بلادنا.[٤]

وعن يمين هذه البلدة، جوكز المذكورة، يوجد بلد يسمى ميسكي Misque، ويسكنها هنود مع إسبنيول، وفيها حاكم وأسقف، ومنها ينحدرون سائرين في البحر مقدار خمسمائة فرسخ، ثم يصلون إلى أرض تسمى جبله وجلويه وولدبويه. وفي هذه البلدة — جبله — أسقف وديوان الملك وحاكم يسمى جنرال، وهم دائمًا في حرب مع الهنود والكفرة؛ لأن هؤلاء الهنود من قبل ما كانوا يعلمون أحوال الحرب، لكن بعد ما تعاشروا مع السبنيولية تعلموا مثلهم، وما كان لهم أولًا خيل ولا كانوا يعرفون ركوبها، فالآن صاروا يركبون الخيل برماح شبه العرب، ويتحاربون مع السبنيولية دائمًا، وإذا مسكوا أحدًا منهم يشوونه ويأكلون لحمه، وأما الرأس فيخرجون جمجمته ويعملونها طاسة ويشربون بها نبيذًا من نبيذ بلادهم، وهؤلاء عصاة وشديدون وقساة القلب، وهم مضادون للسبنيول وصيةً من آبائهم وأجدادهم إلا البعض منهم كانوا هربوا من هذه البلاد من زمان الفتوح لما قُتل ملوكهم وسكنوا في جبال عالية وعاصية.

فمن بعد خمسة وأربعين يومًا خرجتُ من هذه البلدة صحبة القاضي دون خوان المرقوم ليروح يأخذ المحاسبة من الوزير صاحبي المعزول من ليما، ثم رجعت إلى بوتوسي المذكورة. ولما كنت في بلد جوكز كان عندي صورة رأس ووجه المسيح كنت قد جبتها

---

[٤] سماها المؤرخون والرحالون Yerva de Pales أو Caacuys «اطلب Histoire Générale des Voyages, T14 p. 146 etc.»

«أحضرتها» معي من رومية؛ فأهديتها إلى راهب يسوعي، فلما وصلت إلى بلد بوتوسي وفتحت الصندوق وجدتها عندي في الصندوق، فبقيت متحيرًا مع خدامي ورفقائي من هذه العجيبة، فلما سمع رئيس دير رهبان المرسه — التي تأويلها رهبنة مريم — الموهبة؛ طلب مني هذه الصورة؛ فأهديته إياها على ظني أنها ترجع ثاني مرة فما رجعت.

الوزير المعزول

فالآن نرجع نتكلم عن الوزير الذي في ليما؛ صاحبي الذي عزلوه بغير ذنب، وجاء أمر من الملك إلى المطران الذي في ليما ليحكم مكانه إلى أن يجيء حاكم أو وزير آخر. وهذا الوزير المعزول كان سعى في هذا المطران حتى عملهُ مطران ليما، ولما انعزل صار المطران عدوًّا له كبيرًا، وأما سبب عزل الوزير فهو أن تجار الهند كانوا كتبوا ضده إلى الملك وإلى أخي الملك دون خوان أوستريا افتراء بغير حق.

فبعد وصول المعاريض من الهند إلى إسبانية حصلت في يد أخي الملك الذي كان عدوًّا كبيرًا للوزير بسبب أن أخا الوزير كان من طرف الملكة فأرسل عزله، وأنا خرجت من بوتوسي صحبة ذلك الرجل الذي راح ليطلب المحاسبة من الوزير، فوصلنا إلى بلدة تسمى أوكيبا قريبة من البحر الأزرق، وقبل دخولنا بليلة في نصف الليل تاهت البغال، فنمنا تلك الليلة في شدة عظيمة؛ لأنه كان معي حمل فضة رملية، فشكرنا الله عند الصباح وجدناها؛ لأن في تلك الأرض ما يوجد حرامية. وثاني يوم دخلنا إلى البلدة المذكورة، فتلاقيت مع الأسقف المذكور الذي كان في باناما وأنا حامل عكازته، وخلصتني من الغريق في تابوكا؛ فترحب بي واستقبلني كأخ لهُ بعز وإكرام، فهناك حكوا لي عن هندي له معدن قوي غني، وما اكتشف عليه السبنيولية، فكان يروح هو وابنه إلى المعدن سرًّا في الليل، ويقطعان حجارة الفضة، ويأتيان بها إلى داره ويصفيانها بالنار. فلما حكوا لي أنه أعطى حسنة قداس أربعين ألف غرش؛ أرسلت وراءه ودعوته عندي وقلت له: أخبرني لأجل أي سبب لم تكشف هذا المعدن للملك حتى ينعم عليك وعلى أولاد أولادك من فرائض ومراتب الحكم في هذه البلدة؟ فأجابني قائلًا: رأيت هنودًا أقدم مني كشفوا حالهم للسبنيولية وماتوا أخيرًا

تحت العذابات، هو هو السبب. فأنا صدقت كلامه من جهة الظلم الذي نظرتهم يعملونه على الهنود. ومكثنا في تلك البلدة عشرة أيام إلى وقت ما حصل لنا مركب.

ثم سافرنا في البحر ثمانية أيام حتى انتهينا إلى ميناء ليما الذي يسمى الكليا El-Callao، وهو يبعد عن البلد فرسخين. والفضة الرملية التي كانت معي لو تكون بيد غيري لكانوا أخذوها للملك لكن ما أرادوا أن يفتحوا أحمالي. ثم دخلنا إلى بلد ليما في عربانة صاحبي رئيس ديوان الإيمان، وهذا رفيقي نزل في مكان آخر، وأما المطران الموكل على الحكم ضادد هذا القاضي الذي جاء يأخذ المحاسبة وحبسه في داره قائلًا: أولًا تنفي الوزير إلى مكان بعيد مقدار مائتين فرسخ، وبعد ذلك تسمع الشكايات ودعاوى الناس. فأحضروا الوزير وعرضوا عليه أمر النفي فطاع؛ لأن قوانين إسبانية لَمَّا يُعزَل حاكم ينفونه إلى فرسخين، لكن هذا الوزير عدوه دون خوان، مثلما ذكرنا سابقًا؛ فأمر بنفيه إلى مائتي فرسخ، فطاع أمر الملك، وخرج متوجهًا إلى مكان النفي المرسوم الذي يسمى بايتا، وهي أرض حامية يحضرون إليها ماء الشرب من بعد فرسخين، وبقيت امرأته وخدَّامها خارج ليما فرسخين؛ بسبب أنهم كانوا قليلي العافية، وأنا طلعت في رفقة الوزير مع بعض أصحاب لنودعه إلى ميناء الكليا. وهذا الرجل كانت أمانتهُ زائدة في العذراء، فقال: ولو سقوني السم ما يضرني بقوة الإله ووالدته القديسة الطاهرة مريم. فخرج مركبهُ مسافرًا ونحن رجعنا إلى البلد.

فدخلت عند مطران البلد وتكلمت معهُ وقلت لهُ: كيف يحل من الله أن تنفي هذا المسكين إلى ذلك المكان البعيد، وهو رجل ضعيف؛ لأن الحكماء قالوا إن الذي يروح إلى تلك البلاد السخنة يموت، فالسيد المسيح أمرنا في أفعال الرحمة أننا نتفقد المرضى ونزورهم ولا نطردهم وننفيهم إلى مكان بعيد حيث خطر الموت. فأجابني قائلًا: أنا مغتاظ على امرأته لأنها شتمتني؛ لأجل ذلك أردت أنتقم منها في نفي زوجها إلى ذلك المكان. وكان الوزير لما ودعته أمرني أن أدير بالي على بيتِهِ وعلى امرأته؛ لخوفه من الأعداء أن يسقوها سمًّا وأنا بقيت سنة وشهرين مهتمًّا بعائلته.

فأرسل المطران إلى القاضي أن لا يحاسب الرجل إلى وقت ما يعطيه دستورًا، فبقي في هذا الحال مقدار سبعة أشهر متعطلًا، فمن بعد ذلك أعطاهُ دستورًا وجعل الموعد ثلاثة أشهر، ففي جمعة الآلام عجل القاضي في إنهاء هذه الدعوى، وسجَّل الدفاتر وختمها، وأرسل لصق في حيطان الأزقة أوراقًا بأن الوزير المعزول تقرر أن ليس عليه ذنب ولا إثبات بعلة من العلل، بل خالص من جميع المصاريف والزلل. فلما سمع المطران حزن وخزق

ثيابه من ألمِه. حينئذٍ رجع الوزير من النفي إلى بلدة ليما، فخرج لملاقاته من البلدة جميع الأعيان والأشراف ورافقوه إلى القرية، حيث كانت امرأته، وصار فرح عظيم عند الأعيان وعند الهنود؛ لسبب رجوعه سالمًا. ومنحهُ الله بعد رجوعه ولدًا ذكرًا سمَّاهُ فردينندو ديلا كورا كونده كستيليا ومركيز دي ماراكون.

صداقة السائح للمظلوم

ولما كان الوزير منفيًّا أرسل المطران استدعاني وقال لي: لأي سبب أنت مرتبط وملتصق بهذا الرجل؟! تعال إليَّ واتركهُ وأنا أسكنك عندي وأساعدك في جميع مصالحك بكل ما تعتاز. فقلت له: كيف يمكن أن أترك صديقي القديم وأعدم صحبته، لا سيما مثل هذا الرجل الصالح، وبالأكثر الآن بسبب أنه معزول، والله أوصانا بإعانة الضعفاء، وإقامة الساقطين؛ لأن الإنسان الذي يكون ولد حلال ويعرف أصلهُ وشرف جنسه لا يترك صديقه الأول عند عزلته، بل يساعدهُ ويسليه في كربه وضيقته، وأنا واقف أيضًا في خدمتك ومحبتك، ومثل ما أنا صديقه أنا أيضًا صديقك. فقال لي: اصنع ما تريد. فبعد مدة شهرين أرسل المطران يدعوني، فعندما دخلت البلد رحت عند صاحبي رئيس ديوان الإيمان وحكيت له فقال لي: اذهب إليه وكلمهُ بكل ما في خاطرك. فرحت إليه وتكلمت معه؛ فقال لي: لأي سبب ما تروح إلى بلادك؟ فقلت له: إذا أردت الرواح إلى بلادي لا مانع يقدر يمنعني، والآن ما لي نية أن أسافر من ها هنا. فقال لي: إن أمرك والرخصة الممنوحة لك لأربع سنين، وها هي قد كملت. فقلت له: نعم، هكذا هو، لكن أنا ما أريد أسافر وأفترق عن الوزير، وأنت اصنع ما تشاء وتريد. فقال لي: لأي سبب تحب هذا الرجل وتحامي له وأنا ما تحبني مثله؟ فقلت له: نعم، إن في بلادنا وعوائدنا يحامون عن الإنسان الواقع ويساعدونه، ونكمل وصايا الله الذي أوصانا قائلًا: حب قريبك كنفسك، فأنا أحب الوزير وأحبك وأحب قريبي. ثم قام من كرسيه وجاء احتضنني قائلًا: الله يبارك عليك لأنك ابن ناس أشراف، ودمك وأفعالك تشهد عليك. فرجعت عند صاحبي رئيس ديوان الإيمان، وحكيت له ما جرى؛ ففرح، وفرحت أيضًا امرأة الوزير، وقالت: الله تعالى يرحم والديك الذين خلفوك ويزيد أصلك.

عودة الرحالة من البيروه إلى باناما

ثم إني في تلك الأيام انسحبت إلى قرية خارجًا عن البلد بنصف فرسخ تسمى مادلينا؛ لأنه كان هناك بيت جميل وبستان لصاحبي رئيس ديوان الإيمان؛ فسكنت هناك خمسة أشهر وأنا مستنظر مراكب إسبانية، وكنت أيضًا في ذلك الزمان أكتب تواريخ سفري، فلما وصلت المراكب جاء معهم وزير جديد. وصار لي في هذه البلاد ست سنوات لسبب صاحبي الوزير المعزول؛ لأنه كان وعدني أنه يقضي لي أشغالي عندما يرجع الحكم إلى يدهِ، فلما نظرت أن وزيرًا جديدًا قدم قطعت أملي، فلما وصلت مراكب إسبانية إلى بورتو بلو ورست هناك أمر مطران ليما، الذي كان يومئذٍ متوليًّا وحاكمًا على تلك بلاد البيروه، أن يحمل تجار ليما الخزنة على المراكب التي تخص الملك، وينحدروا إلى بورتو بلُّو ويحضروا الموسم؛ لأن قوانين تلك البلاد أنه لما تصل الغلايين من إسبانية إلى بورتو بلو، وتنحدر المراكب إلى باناما؛ فينقلون الفضة من باناما إلى بورتو بلُّو على مقدار ألف بغل، ولا يزالون ينقلونها مدة شهر. والبعد هو ثمانية عشر فرسخًا، وفي نصف الدرب يوجد نهر صغير Chagre يقطعونه بشختورات يسمونها كتاوس chatas موسوقة إلى بورتو بلو، ويصير الموسم حينئذٍ مدة أربعين يومًا لا غير، وينهون في هذا الزمان كل البيع والشراء.

فلنرجع إلى قولنا، فخرجت مع الوزير المعزول، وخرج كل الأشراف والأعيان ليودعوه، وكان معنا تجار ذاهبين إلى الموسم. وصار ذلك اليوم عظيمًا بضرب المدافع والحراقات، وذلك يوم الأحد في واحد وعشرين من شهر أيلول سنة ١٦٨١، فخرجنا من هذا الميناء المسمى الكلياو El Callao قاصدين ميناء باناما، ومن الكلياو وصلنا في خمسة أيام إلى ميناء يسمى يابتاف Amotape واشترينا كل ما نعتاز إليه من الزوادة، فهناك الدجاجة تسوى غرشًا ونصفًا، والغنمة تسوى خمسة غروش. ثم بعد يومين سافرنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مكان في البحر يسمى المورتوخاده Amortajada، يعني المحنط؛ لسبب

أن هناك البحر قليل العمق، وينحدر الماء ويسوق المراكب على انحراف، لكن الرب نجانا بواسطة والدته الشفيعة مريم العذراء؛ لأنه صار علينا ضباب وهمدت الريح. وكانت أمواج البحر التي تسمى كورنته Corriente تزعجنا وتدفعنا للأرض حتى تأملنا ونظرنا أننا صرنا قريبين للكهف،[١] فطار عقلنا وقمنا عمومًا انتصبنا للصلاة، والكاهن يبارك ويحل لأننا أشرفنا على الموت، ونحن نتضرع بتخشع لله ولوالدته مريم العذراء، فبعد أن أكملنا الصلاة هبت ريح من قلب الجبل مثل منفاخ ودفعت مركبنا إلى البحر؛ فتخلصنا من ذلك الشر والخطر العظيم، والمراكب اللاحقة وراءنا من بُعد؛ لأن الهواء كان هامدًا والبحر جامدًا، لما رأونا قادمين إليهم بالهواء تعجبوا جدًّا. ورافقتنا هذه الريح إلى عصر اليوم الثاني، فدخلنا إلى ميناء يسمى سانتا إلينا، يعنيقديسة هيلانة S. Helena، حيث مكثنا أحد عشر يومًا ننتظر المركب القادم من بلد غواياكيل، وهذا المركب المدعو مركب الذهب كان محملًا باثني عشر مليونًا من الذهب، فلما وصل إلينا الجنرال أمرنا بالخروج من هذه الأسكلة؛ فخرجنا قاصدين باناما، فدخلنا إليها بالخير والسلامة بعد خروجنا من ليما باثنين وأربعين يومًا، وهنا وجدنا مركبين فيهما جنود إسبنيولية جاءوا من ينكي دنيا ليفتشوا على قرصان البحر، يعني اللصوص الجلالية[٢] الذين في البحر القبلي، فأشار عليَّ صاحبي الوزير المعزول أن أذهب إلى ينكي دنيا لأنه استحى مني بسبب أنه ما قدر يعمل معي شيئًا من الذي وعدني به. واستعد أن يجهزني بكل ما أعتاز، ويعطيني مكاتيب توصية إلى وزير ينكي دنيا الذي كان من أقاربه.

نبتدي بعون الله تعالى وحسن توفيقه العظيم، ونؤرخ أخبار سَفرتي إلى بلاد ينكي دنيا.[٣]

[١] نظنهُ أراد معنى الصخر، لأن كلمة الكهف وردت على لسان البغداديين بهذا المعنى، نقلًا عن السرياني، والمعنى العربي معروف، وهو المغارة أو البيت المنقور في الجبل.

[٢] اطلب صفحة ١٤.

[٣] يريد بلاد المكسيك، اطلب صفحة ٢.

السفر من باناما

جزيرة سليمان

ففي شهر كانون الأول من شهور سنة ١٦٨١ مسيحية دخلنا في المركب الكبير الذي يسمى قبطانًا، وسافرنا ثلاثة فراسخ، فوصلنا إلى جزيرة تسمى تابوكا Taboga سابقة الذكر، وهناك مكثنا ثلاثة أيام، وملأنا ماء وتسوقنا خضرًا وفواكه وغيرها من المبردات. ثم سافرنا قاصدين ميناء يسمى رياليخو Realejo، فمن بعد خمسة أيام جزنا على جزيرة تسمى مونطوزا Montuosa وهي غير مسكونة، وهناك سكنت علينا الريح وبقينا اثني عشر يومًا لا يتحرك المركب. وكان أيضًا بجانبنا جزيرة أُخرى تسمى إيزلا ده لوس لدرونس Isla de los Ladrones؛ أعني جزيرة اللصوص، فذكروا لنا أن مركبًا سافر في هذا البحر إلى ينكي دنيا، فأصابته ريح مخالفة ورمته في جزيرة الرمل، ثم سكنت الريح بعد يومين، فجعل البحرية يعمرون بعض أشياء في مطبخ المركب كانت انهدمت من كثرة الرياح التي صادفتهم في البحر، فطلعوا إلى الجزيرة وأحضروا منها رملًا ليملئوا الحوض الذي يطبخون عليه، ثم سافروا من تلك الجزيرة، وثاني يوم طبخ لهم الطباخ مثل العادة، فأراد أن يحركش النار فرأى الرمل كالحجر فقلعهُ فإذا هو قرص ذهب، فلما علموا أرادوا الرجوع إلى الجزيرة فما استطاعوا لأنهم لم يكونوا أكدوها، ولا وزنوا قيراطات الشمس. وهذه الجزيرة كانت تسمى في كتب القدماء إيسلا ده سلامون Isla de Salomon يعني جزيرة سليمان، ويقولون بأن سليمان لما عمر البيت كان يحضر الذهب من هذه الجزيرة،

والآن السبنيولية ما لهم نشاط واتفاق وحرارة طبيعية حتى يفتشوا على هذه الجزيرة،[١] وبعد الزمان المذكور سهلت لنا الريح السفر فسافرنا، وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى ميناء يسمى كولفو دولسه Golfo dulce، يعني الخليج الحلو؛ لأن هناك يجري نهر ماء حلو ويختلط في البحر؛ فرسينا هناك، وخرج البحرية ليملئوا الماء، وأنا خرجت معهم إلى الأرض؛ لشدة الحر، وابتدأتُ أغتسل في مياه النهر الباردة ليتطرى جسدي. وهذا النهر عمقه ذراع فقط، ورأيت رملهُ مخلوطًا بالذهب، فأريته رئيس المركب الذي كان مولودًا في تلك البلاد؛ فقال لي: لا تعجب من ذلك؛ لأن في كل هذه الأراضي وهذه الأنهر يوجد الذهب، لكن السبنيولية لا يتجرءون على المجيء لاستخراجه لسبب الهنود الكفرة الساكنين في رءوس الجبال؛ لأن في ذلك الصقع يوجد هنود بغير عدد. وفيما نحن راسون حدث علينا اضطراب عظيم في البحر، ومن شدة الاضطراب انقطع حبل المرساة مرتين.

وبعد أن بقينا هناك ثلاثة أيام أقلعنا وسافرنا؛ فوصلنا في ستة أيام إلى ميناء اسمه كلديره La Caldera، أي ميناء التنجره «الطاجن»؛ فرسينا هناك، فقلت لعسكر المركب أن يحوِّشوا لي من البحر صفدًا، فأتوا بتسع صفدات، ففتحتها واحدة واحدة لنأكل ما فيها، ففتحت واحدة ورأيت داخلها حبة لؤلؤ قدر الحمصة، فقلت للجنرال: أيشٍ هذه النذالة، كيف يكون في هذا البحر لؤلؤ وما تستخرجونه؟ فقال لي: هذا أيضًا لخوفنا من الهنود الكفرة. وبقينا في الميناء يومًا وكانت الريح ضعيفة، والسماء تمطر مطرًا سخنًا. وبعد خمسة أيام انتهينا قرب جبل يسمى بابا كايو Papagaio، ولما وصلنا هاجت علينا ريح شديدة، وانكسر صاري المركب ثلاث شقف، فبقينا من القاطعين الرجاء وأيسنا من الخلاص لأجل الاضطراب الذي في البحر، وهبطت قلوبنا من الخوف؛ لكن بقدرة الباري تعالى هدأ البحر وهمدت الريح.

[١] وجدنا في تاريخ الأسفار نص هذا الخبر كما ذكره رحالتنا لكنَّ كثيرين من الكتبة ينفون صدقهُ سيما بعد ما سعت إسبانية سنين طويلة في تحقيقه ولم تبلغ المرام؛ فقد سافر الفارو دو مندوزا سنة ١٩٥٩ وبمعيَّته أسطول عديد، فطاف كل الجزائر المجاورة فلم يجد ضالته. وبعد هذا التاريخ بثلاثين سنة سعى أنطوان دي مدينة وغيره من البحارة في البحث المدقَّق، فذهبت مساعيهم أدراج الرياح. على أن تسمية هذه الجزائر باسم سليمان وأنه استجلب منها الذهب اختلاق لم يُبنَ على أساس.

بلاد نيكاراغا

وبعد ستة أيام وصلنا إلى ميناء رياليخو Realejo أو Rialexo، ونزلنا إلى الأرض فبقينا هناك يومًا وليلةً، فكتب الجنرال إلى أسقف مدينة ليون Leon التي تبعد عن هذا الميناء نحو تسعة فراسخ، وأعلمهُ بقدومي، فلما سمع فرح فرحًا عظيمًا؛ لأنه لما كنت في باريس كان تصاحب معي، وكان له دعوًى مع الرهبان في باريس، وهو أيضًا كان راهبًا من طائفة المرسه Merci فحين كسب الدعوى وجاء إلى مدريد أنعم عليه ملك إسبانية بهذه الأسقفية. وثاني يوم خرجت قاصدًا مدينة ليون، ولما اقتربت رأيت الأسقف جاء لاستقبالي خارج البلد مقدار فرسخين، فتلاقينا مع بعضنا، ثم أخذني إلى بيته، وبقيت عندهُ ثمانية أيام، وهناك صادفت رجلًا صاحبي كنت نظرته وتعارفت معه في ليما، فهذا الرجل المبارك أهداني بغلة جيدة، والأسقف أيضًا أهداني بغلة إكرامًا.

ومن بعد الثمانية الأيام خرجنا من هناك إلى ضيعة بعيدة فرسخين تسمى ساواجه، ثم رحلنا منها فوصلنا إلى ضيعة أخرى تسمى باللسان السبنيولي نوسترا سنيورا ديل ويخو Nostra Senora Del Vejo، يعني ضيعة ستنا العذراء للشيخ. فهذه العذراء لها معجزات كثيرة، لا سيما مع المسافرين في البحر، ولما كنا في لجاج البحر وانكسر صاري مركبنا — كما ذكرنا سابقًا — كنت نذرت على روحي أني إذا وصلت إلى كنيستها أقدس لها تسعة أيام، فبقيت في هذه الضيعة تسعة عشر يومًا، ووفيت نذري،[1] وأيضًا كنت أنتظر

---

[1] ذكر المؤرخون هذا المعبد ووصفوا المعجزات التي تجريها فيه العذراء المجيدة، وقد سميت سيدة ويجو أو الشيخ لسبب جبل النار القريب منها والمسمى Volcan Vejo.

سنبكًا الذي يسمى كانوه Canoa وبالفرنساوي Canot؛ لنجوز هناك في مضيق البحر، وهو نحو أربعة وثلاثين فرسخًا. وكان الأسقف أوصاني أن لا أعبر في هذ المضيق لأنه خطر جدًّا، وفيه تغرق سفن كثيرة، لكني اتكلت على معونة مريم العذراء وكنت أدعوها بنت بلادي وركبت في السنبك.

بلاد سان سلفادور

وصف نبات النيل

ففي عشرين ساعة جزنا ذلك المضيق ووصلنا إلى الجانب الآخر، ونزلت في قرية تسمى أماپالا Amapala، وهي أربعة بيوت للهنود، فلاقيت هناك إسبنيوليًّا آتيًا من ينكي دنيا وذاهبًا للبيروه. فحُكي لي أنه باع فرسه لرجل هندي مع سرجها ولجامها بقرشين ونصف؛ لأنه كان يريد أن يجوز مضيق البحر؛ ولهذا باع فرسهُ بهذا الثمن. ومن هناك رحنا وسرنا ثمانية أيام أربعين فرسخًا، فوصلنا إلى قرية هنود تسمى أموشايو. ومن هناك رحلنا وسرنا ثمانية فراسخ، فوصلنا إلى قرية تسمى صان ميكاييل S. Miguel، ومنها سرنا ثمانية فراسخ إلى قرية تسمى زرواكين، ومنها سرنا ستة فراسخ فوصلنا إلى قرية تسمى إستيبيك Istepec، ومنها سرنا سبعة فراسخ، فوصلنا إلى قرية تسمى كوكينبيت، ومنها رحلنا إلى قرية صان مرتين S. Martin ثمانية فراسخ، ومن هناك إلى صان سلفوادور S. Salvador. وفي هذه التخوم يزرعون النيل، وهذا النيل يشبه النفلة، أي الفصَّة التي يطعمونها للخيل. وكل واحد منهم له مزرعة فيزرعون النيل مثل القمح، وبعض السنين يعلو طول قامة إنسان؛ فيرخص في ينكي دنيا، وبعد ما يكمل زمان حصاده يحصدون ذلك الحشيش ويرمونه في حوض عظيم فيحمى ويأكل بعضه بعضًا. وفي ذلك الحوض دواليب ليخبطوا الماء ثم يفرغونه في حوض آخر، ومن بعد ثلاثة أيام يزبد فيأخذون في أياديهم تلك الزبدة مثل الطابات وينشرونها في الشمس، فهذا الذي يسمونه في بلادنا نيل قروتي، والأسفل يعملونه نيل التختة.

بلاد غواتيمالا

ومن هناك رحنا إلى قرية تسمى خالابا وهو خمسة فراسخ، ومن هناك إلى قرية تسمى أوبيكو سبعة فراسخ، ومن هناك إلى قرية قديسة حنة ثمانية فراسخ، ومن هناك إلى قرية تكيسا ستة فراسخ، وهذه القرية يسكنها مولاتوس Mulatos يعني المولودين من أب أبيض وأم سوداء، وهؤلاء هم سمر لا بيض ولا عبيد. ومن هناك إلى قرية كليه تاكو ثمانية فراسخ، ومن هناك إلى قرية أسكلاوس عشرة فراسخ، ومن هناك إلى قرية بيتاپا اثني عشرة فرسخًا، ومن هناك إلى قرية سنتياكو Santiago يعني مار يعقوب ستة فراسخ، ومن هناك جزنا إلى بلد واتيمالا Guatemala، ونزلت في دير مار عبد الأحد؛ فقبلوني بفرح عظيم. وفي هذه البلدة ديوان الملك الذي يسمى في السبنيولي أودنسيا Audiencia يرأسهُ واحد يسمى برزيدنته Presidente أي رئيس الديوان. وأيضًا في هذه البلدة أسقف غنيٌّ جدًّا اسمه دون خوان أوتيكا، فرحت زرته وجاء هو أيضًا زارني يوم الأحد الثاني من صوم الكبير؛ فدخلت قدست في الكنيسة من غير دستور الأسقف بحضرة أب اعترافه؛ فراح حكى له عن حُلة القداس وعن بدلة البابا؛ ففرح فرحًا عظيمًا، وأمر اثنين من خوارنة تلك الكنيسة أن يقفا في خدمة قداسي عندما أقدس. وبقيت في هذه البلدة أربعة وثلاثين يومًا معزوزًا ومكرمًا من الجميع، وقدست في جملة كنائس وفي ديورة الرهبان. وبالحق إنهم كانوا يقدمون لي هدايا لائقة، وكان أيام الصوم الكبير سنة ١٦٨٢ مسيحية.

ثم بعد تلك الأيام خرجت من هذه البلدة، ورافقني اثنان من جواويش الديوان وأربعة من الخوارنة من جانب الأسقف إلى خارج البلدة بميل، فتودعت منهم وتودعوا مني، ورجعوا إلى المدينة، وأنا سرت مسافرًا ثلاثة فراسخ؛ فوصلت إلى قرية تسمى شتمالينا بجاكو، ومنها إلى قرية تسمى باصون ستة فراسخ، ومن هناك إلى قرية باسيما طولوز سبعة فراسخ. ومن هناك إلى صان أنطون جيشتبك St. Antoine de Suchitepec اثني عشر فرسخًا،

وهذه القصبة كان لها حاكم من مدينة سيويليا، فاشتكى عليه الهنود إلى ديوان واتيمالا حتى يعزلوه؛ فقمت أنا توسطت له وكتبت إلى رئيس الديوان الذي كان يسمى دون خوان ميكاييل ده أهورتو، وهذا الرجل قوي مسيحي ومحبٌّ للكهنة، ولما كنت أروح أزوره كان يبرك على ركبتيه ويبوس يدي. وفي هذه القصبة المذكورة يصير الكاكاو الذي يصفونه جيكولاته، وأشجاره كثيرة العدد، وهي في يد الهنود، وهم أغنياء جدًّا، وقد جعلوا أربعة آلاف غرش رهنًا حتى إذا تخاصموا مع الحاكم أو مع خوري القرية يصرفون من فائدة هذه الدراهم على القضاة والكتبة. ورحت من هذه القرية إلى قرية تابو، وهي على خمسة فراسخ، ومن هناك إلى قرية صانتا ماريا ده بيلين ستة فراسخ، ومنها إلى قرية صان كريستوفل ثلاثة فراسخ، ثم إلى صان فرنسيسكو الألطو ستة فراسخ، ثم إلى قرية خولانيلس ستة فراسخ، ثم إلى رانجو قرية صان رايمون خمسة فراسخ، ثم إلى أكواكتينا إنكو فرسخان، ثم إلى قرية بيانطو فرسخان، ثم إلى قرية كوكومادانس عشرة فراسخ، ثم إلى قرية صان مرتين ثلاثة فراسخ، ثم إلى قرية بيقيطان فرسخان، ثم إلى قرية صان أنطون برسكين خمسة فراسخ، ثم إلى قرية وسيتنام، ثم إلى قرية اسكيتنانكو Isquintenango سبعة فراسخ، ثم إلى قرية سوسويتانكتو سبعة فراسخ، ثم إلى قرية بينولا ثلاثة فراسخ، ثم إلى قرية توبيسيا Teopisca خمسة فراسخ، ثم إلى بيكانا قرية سيوداد ريال Ciudad Real ستة فراسخ، ثم إلى بيلاكانا فرسخان، ثم إلى قرية استابا ستة فراسخ، ثم إلى خيابا خمسة فراسخ، ثم إلى بلد جيابا Chiapa السبنيول فرسخان.[١]

[١] هذه الأسماء مبهمة في الأصل، وقد حققنا بعضها قدر ما استطعنا وأثبتنا غيرها كما وردت.

بلاد شيابا[١]

رسول السلام

فدخلت إلى هذه البلدة ونزلت في بيت الحاكم. وفي هذه البلدة أسقف يسمى دون الونصو براوو، كان متخاصمًا مع بروبنسيال Provincial أعني رئيس رهبان مار عبد الأحد. وكان الأسقف المذكور قد حرم حاكم البلد، فلما نظرت هذا الحرم والبغضة التي بينهما تألمت كثيرًا؛ فتكلمت مع الأسقف ومع البروبنسيال، واجتهدت على عمل الصلح بينهما، ثم بعد يومين كان نهار عيد مولد العذراء، وكان الجسد المقدَّس مصمودًا على المذبح الطاهر، والأسقف كان يقدس، فبعد أن خلص من قداسه قمت أنا من الكرسي وأخذت معي البروبنسيال وحاكم البلد وقدمتهما أمام الأسقف، وبركت على ركبتي وقلت له: قال السيد المسيح: سلامي أتركهُ لكم. وأمرنا بالصلح والسلام، وها هو ذا السيد المسيح حاضر وناظر من على هذا المذبح المقدس، فيجب علينا أن نترك جميع الأفكار الخبيثة والحقد، ونبدلها بالمحبة والوداعة، كقول المخلص: باركوا ولا تلعنوا. فقام الأسقف رفع يده وبارك عليهما وهو يضحك قائلًا: تبارك اسم الرب، ها أنذا خوري جاء من بلد بغداد ليصلحنا. حينئذٍ حل حاكم البلد من الحرم ورحنا إلى دار الأسقف معزومين للغداء، فبعد ما خلصنا من الغداء قام الأسقف من كرسيه ووضع على رقبتي جنزيرًا من ذهب يساوي مائتي

---

[١] Chiapa.

غرش، والحاكم المذكور أهداني بغلة جيدة وأيضًا البروبنسيال أهداني هدية، وما كانوا يتركوني ولا دقيقة، فكان القسوس والرهبان يسألوني عن بلادنا التي يسمونها الدنيا العتيقة. وبعد أن بقيت هناك ستة عشر يومًا سافرت قاصدًا قرية تسمى توستا، وهي على فرسخين، ومنها إلى قرية تسمى أكوسوكاونا أربعة فراسخ، ثم إلى قرية بيانتيك أربعة فراسخ. ومن هذه القرية يفرق الحكم لأنها الحد بين حكم وزير ميخيكو Mexixo أو Mejico أي ينكي دنيا وبين حكم واتيمالا Guatemala؛ لأن حكم واتيمالا قائم وحده.

الذهاب إلى مكسيكو[1]

وصف القرمز

ثم سافرنا إلى قرية سانا تيتيبك التي تبعد ستة فراسخ، ثم إلى قرية استينبك تسعة فراسخ، ومنها إلى قرية أقانيتبك، ثم إلى بلد خلايا. وفي هذا البلد كان حاكم يسمى دون خوان بيتيا، وهذا كان عمهُ كاتب ديوان الهند، وكان قوي صاحبي، ولما سمع بقدومي خرج فرسخين خارج البلد لملاقاتي، واستقبلني بعز وإكرام، وأنزلني في داره. وبالقرب من هذه البلدة جبل فيه جلالية يشلحون بعض الأوقات وينهبون عابري الطريق، فأرسل معي الحاكم اثنين من الجنود ليخفراني في معبر ذلك الجبل؛ فعبرناه بمعونة الله بغير ضرر، ووصلنا إلى قرية تسمى تكيسيا على أربعة فراسخ. ومن هناك إلى قرية صان خوان ديلا كوصتا اثني عشر فرسخًا، ثمَّ إلى قرية ينخابا خمسة فراسخ، ثم إلى قرية سان ميكاييل عشرة فراسخ، ثم إلى قرية سان لوكس ثلاثة فراسخ، ثم إلى بلد واخاكا Guaxaca ستة فراسخ. وفي هذا البلد كان رجل شريف من إسبانية له أخ في ليما يخدم عند الوزير صاحبي المعزول، فهذا كان أعطاني مكتوبًا إلى أخيه الذي في واخاكا، فلما قربت من هذه البلدة أرسلت لهُ المكتوب، فقام هذا الشريف وطلع خارج البلد فاستقبلني بفرح، وأخذني إلى البلد وأنزلني في بيت كان هيأهُ لي. وكان أسقف هذه البلدة قد توفي وبقي كرسي الأسقفية فارغًا، وكان

[1] Mexico أو Mejico.

هناك ورديان Gardien، أعني رئيس كهنة، فهذا المبارك لما كان آتيًا من الهند إلى إسبانية وقع أسيرًا في الجزائر، فسهل له الله فأُعتق وصار رئيسًا على قسوس هذه البلدة، وكانت لي معه صحبة وأكرمني غاية الإكرام، وكان اسمه دون ديونسيو. وأما هذه البلدة فهي غنية بالعمائر والكنائس، لا سيما دير مار عبد الأحد، وباقي ديورة الرهبان ومارستانات المرضى. والكنيسة الكبيرة فاخرة للغاية، وغير كنائس أخرى. وأنا كان معي خرجية مقدار ثمانمائة غرش فأودعتها عند صاحبي المذكور المسمى دون فرنسيسكو ده كاسترو حتى يتسوق لي بها قرمزًا؛ لأن في هذه البلدة ونواحيها يطلع القرمز يلصق في بعض أشجار ذات ورق سميك مثلما ذكرنا سابقًا، فيلتصق مثل الدود في الورق ويصير مثل حب الجدري، ثم في حين بلوغه يستخرجونه ويضعونه في فرن حامٍ فييبس وينطفئ، وبعد ذلك ييبسونه.

ومن بعد خمسة عشر يومًا خرجت من هذا البلد قاصدًا ميخيكو Mexico المذكورة حيث يجلس وزير الملك، فبعد أربعة فراسخ وصلنا إلى ضيعة تسمى أبيتا، ومن أبيتا إلى طاطو ستة فراسخ، ومنها إلى أوانيتبك خمسة فراسخ، ثم إلى قرية صان أنطون فرسخان ثم إلى قرية كوس خمسة فراسخ، ثم إلى سان سابصطيان خمسة فراسخ، ثم إلى قرية تيواكان أربعة فراسخ، ثم إلى ضيعة أناخوتيبيك خمسة فراسخ، ثم إلى قرية تبياكا سبعة فراسخ، ثم إلى مدينة بوبولا ده لوس أنخلوس يعني مدينة شعب الملائكة La Puebla de los Angelos ستة فراسخ، فجزتُ إلى هذه البلدة، ونزلت عند رجل من أصحابي. وهي بلدة كبيرة مفرحة بالقصور وبالعمائر، وغنية بالكنائس مثل الكنيسة الكبيرة التي هي غنية جدًّا بالعمارة والفضة والذهب والذخائر المقدسة. ويسكن الآن في هذا البلد أسقف يسمى دون عمانوييل ده سانتا كروس، وهو رجل عالم وخائف الله، وله معبور في كل سنة ثمانون ألف غرش، وأيضًا في هذا البلد ديورة من جميع طوائف الرهبان.

وصف مكسيكو

ثم بعد يومين خرجت متوجهًا إلى بلد ميخيكو التي هي بعيدة من هذه البلدة نحو أربعة وعشرين فرسخًا، فوصلت إليها ودخلت إلى المدينة، ونزلت عند أحد أصحابي، كان معي مكتوب له من بلد واتيامالا؛ فقبلني بالعز والإكرام، فمن بعد يوم وقعتُ مريضًا وبقيت عشرة أيام في الفراش. وأما وزير هذه البلدة فكنت أحضرت له مكتوبًا من قريبه الوزير صاحبي الذي كان في البيروه، فبقي يرسل إلي حكماءهُ ليشرفوا علي، وبعد عشرة أيام تعافيت بعناية الله، وقمت زرت الوزير وزرت امرأته، فاستقبلاني بمحبة ووجه بشوش، وعرض علي الوزير أن أسكن عندهُ في السرايا؛ فاستكثرت بخيره وشكرت فضله على ذلك، وما أردت أنزل عندهُ بل استكريت لي بيتًا بثلاثمائة وستين غرشًا في السنة، واشتريت لي عربانة وبغالًا بستمائة وخمسين غرشًا، ثم ابتديت أروح أزور الأشراف، فزرت أولًا مطران البلد ثم زرت باقي الأعيان؛ فالمطران أعطاني دستورًا أن أقدس أينما اشتهى خاطري، وفي كل ليلة وقت المغرب كنت أروح ألقش «أتحدث» عند الوزير مقدار ساعتين وأرجع إلى بيتي. وأما هذا المكان فهو أرض واطية، وفي جانب هذه البلدة بحيرة ماء نابعة من الأرض، وفي بعض السنين أمطرت مطرًا زائدًا؛ فغرقت البلدة، وكثير من البيوت امتلأت ماءً وسقطت. وهذه الأرض ما لها أساس ثابت. وأيش تتكلم عن الكنائس التي في هذه البلدة، وعن شرف وحسن بنائها وزيادة غناها، وهو شيء لا يوصف؛ لأن في هذه البلدة ثلاثة ديورة لرهبان مار أفرنسيس وديرين لرهبان مار عبد الأحد وديرين لرهبان اليسوعية، وثلاثة ديورة لرهبان مار أغسطينوس، وديرين لرهبان المرسي، ومارستانات لمداواة المرضى، وسبعة عشر ديرًا للراهبات، وديرًا للرهبان الكرملتانيين، والكنيسة الكبيرة وغير كنائس أخر عديدة.

كنيسة العذراء العجائبية

وخارج البلد بنصف فرسخ يوجد كنيسة على اسم مريم العذراء تسمى وادالوبي Guadeloupe، وذكروا لنا أنه بعد دخول السبنيولية إلى هذه البلاد بأيام قليلة بينما كان أحد الهنود المسمى خوان ديكو دائرًا خارج البلد إذ ظهرت له امرأة جليلة بهية في غاية الجمال وقالت له: اذهب إلى مطران البلد وقل له أن يبني لي بيتًا في هذا المكان. فارتعد الهندي المذكور من ضياء نور وجهها، وراح عاجلًا مثل ما رسمت تلك الست، وقال للمطران كل ما أمرت به، فلما تأمل المطران في هذا الهندي وفي حالته الزريَّة وثيابه الحقيرة أمر بطرده؛ فرجع هذا المسكين خائبًا ومطرودًا إلى المكان الذي تكلمت معه تلك السيدة الجليلة؛ فظهرت له مرة ثانية في المكان المذكور، وقالت له كقولها الأول؛ أن يرجع إلى المطران ويقول له كما أمرتهُ؛ فأطاع أمرها وراح ثانية عند المطران، وعرض عليه كل ما أمرته تلك الست؛ فاحتقره أيضًا المطران وأمر بتهجيجه وطرده؛ فرجع محزونًا ومطرودًا إلى ذلك المكان؛ فظهرت له الست ثالث مرة وقالت له: لماذا لم تعمل الذي أمرتك به؟ فأجابها قائلًا: يا ستي قد فعلت مرسومك، ورحت مرتين عند المطران، وعرضت عليه كل ما أمرتني لكن هججني وما صدقني. فقالت له: امضِ إليه ثالث مرة وقل له كل ما أمرتك، ودونك هذا الورد خذه معك إلى المطران ليصدق قولك. ثم ناولته الورد، وكان غير أوانه، فأخذ ذلك الهندي الورد وجعله في الرداء الذي كان ملتحفًا به، وقصد بيت المطران، فلما نظره الخُدَّام وعرفوه هججوه وطردوه؛ فقال لهم: لأجل الله اتركوني أتكلم مع المطران؛ لأن عندي هدية من عند الست الإسبنيولية أهديها له. فأعلموا المطران بذلك؛ فأمر بدخوله، فلما وقف بين يديه قال له: يا سيدي، الست أرسلتني إليك ثلاث مرات وتقول لك أن تبني لها بيتًا في المكان الفلاني، وها قد أرسلت لك هذا الورد حتى تصدق قولي وتتيقن أنها هي أرسلتني إليك. فلما رمى الهندي الورد من ردائه ونظر المطران لهذا العجب لأنه ما كان

زمان الورد وزاد عجبهُ إذ نظر صورة مريم العذراء قد ارتسمت في رداء الهندي، وكان ذلك الرداء من شال سميك؛ حينئذٍ جثا المطران على ركبتيه أمام هذا الهندي وطلب منه الغفران. وعاجلًا تخاطفوا ذلك الورد من ذلك الهندي بحيث ارتسمت صورة العذراء في ردائه، ثم شلحه المطران الرداء المذكور بزياح ودق النواقيس ووضعه في المذبح الكبير بفرحٍ وعيدٍ عظيم. وخرجوا إلى المكان المذكور، وأمر المطران بعمارة الكنيسة في المكان الذي ظهرت فيه للهندي المذكور، وسماها كنيسة مريم العذراء ده وادالوبي. والهندي خوان ديكو المذكور كمل حياته في خدمة العذراء في تلك الكنيسة، وتنيح مثل الطوبانيين. وهذه الكنيسة خارج عن البلد ميخيكو بنصف فرسخ كما ذكرنا، وهي غنية جدًّا بالفضة والذهب والبدلات المثمنة؛ حتى إن درج المذبح الكبير — وهو تسع درجات — صنعوه من فضة، والعواميد التي على المذبح أيضًا من فضة، فمن حد هذه الكنيسة إلى داخل هذه البلدة قد عمروا مثل الجسر بعلو ذراعين؛ من سبب أن تلك الأرض في أيام الصيف لما تمطر تصير كلها بحيرة فما يمشون إلا على ذلك الرصيف؛ لأن في ذلك البلد يبدأ المطر من أول شهر أيار إلى آخر شهر أيلول بخلاف عوائد وطقس بلادنا.

هجوم الهراطقة على أسكلة ويراكروس

وأنا فبقيت مرتاحًا في هذه البلدة نحو ستة أشهر حتى وصل مركب من إسبانية وأحضر جملة مكاتيب من التجار إلى شركاتهم. وفي هذا المركب جاء رجل محتال وجعل نفسه أنه قادم من طرف الملك ليفتش على المذنبين، ويأخذ محاسبة من خزندارية الملك؛ فهذا الشقي رمى خوفًا في قلوب كثيرين من المذنبين. أما الوزير فإنه لما سمع كتب إلى حاكم الأسكلة أن ينظر في الأوامر التي معه، فما أراد أن يظهر أوامره؛ فعلم الوزير أنه كاذب محتال؛ فأرسل خلفه جنودًا ليحوشوه؛ فوجدوه وأمر الوزير بحبسه. وبتلك الأيام جاء بعض مراكب قرصان إلى مينا ويراكروس Vera Cruz، وكانوا كلهم هراطقة مجتمعين من كل أجناس الطوائف فوصلوا في الليل وخرجوا للبر بعيدًا عن الميناء بفرسخ، ودخلوا البلد مثل اللصوص؛ لأنه ليس للأسكلة سور، وعبروا إلى بيت حاكم البلد وحبسوه. وبعد ذلك دخلوا وأخرجوا الناس رجالًا ونساءً، وحبسوهم في الكنيسة الكبيرة، وسكروا عليهم، وأقاموا حراسًا على الأبواب. وابتدءوا ينهبون ويسلبون الديورة والكنائس والبيوت مقدار ثلاثة أيام، ثم أخرجوا الناس من الكنيسة وحملوهم مال النهيبة، وساقوهم إلى حيث كانت المراكب راسية بعيدًا نحو نصف فرسخ، وحملوا المال وجميع الرجال والعبيد في هذه المراكب، وأخذوهم إلى جزيرة قريبة من ذلك الميناء نحو فرسخ، وأنزلوهم هناك وقالوا لهم: إما أن تعتقوا أرواحكم أو نقتلكم جميعًا. وقطعوا عليهم مائة وخمسين ألف غرش؛ فأرسل هؤلاء المساكين من جانبهم إلى مدينة البويلا المذكورة Puebla؛ ليحضروا عتاقهم، فمن بعد عشرة أيام قدموا لهم المائة والخمسين ألف غرش؛ فأعتقوا الناس السبنيولية وأخذوا العبيد السود وجميع المال الذي نهبوه من هذه البلدة مقدار ثمانية مليونات. وكان عدد هؤلاء القرصان الجلالية ستمائة نفر، والسبنيولية مع عبيدهم كانوا أزيد من أربعة آلاف نفر. وكان الرئيس على القرصان رجل هرطوقي له رفيق وشريك إسبنيولي يسمى نسيليو،

فتخاصما على قسمة المال ما بين الاثنين؛ فقتل نسيليو الرئيس الهرطوقي، وانتصب عوضه رئيسًا على القرصان. وأنا كان لي في هذه البلدة حِمل قرمز اشتريتهُ من واخاكا بألف غرش؛ فنهبوهُ من جملة الأموال. وبينما هؤلاء القرصان في تلك الجزيرة أتت المراكب من إسبانية، وفي دخولها إلى الميناء أرسل الوزير فأعلم الجنرال حقيقة الحال؛ ليحارب قبل دخوله الميناء أولئك القرصان ويحرقهم؛ فنصب الجنرال بيرقًا ليجمع عندهُ رؤساء كل المراكب ويعملوا ديوانًا ويخطوا خطوط أياديهم؛ حتى لا يكون الجنرال مذنبًا وحدهُ؛ لأن مراكبه كانت موسوقة بضائع، فخاف أن يغرق له مركب أو يحترق في المحاربة، فلما ابتعد من الميناء واجتمعوا وعملوا ديوانهم نظر إليهم نسيليو؛ فنصب قلاعهُ وسافر وهو يضحك على المراكب السبنيولية، وخرج أمامهم من غير خوف بعدما أخذ معه أزيد من ألفي أسير مع عبيد سود، ومنهم حمر. وكان ذلك في تاريخ سنة ١٦٨٣ مسيحية.

من المكسيك إلى بغداد عن طريق الصين

فمن قبل هذا التاريخ بمقدار مائة سنة، على زمان فيلبه الرابع، ملك إسبانية، سافرت مراكب من ينكي دنيا إلى نواحي الصين، فرأوا جزيرة واكتسبوها وجعلوا اسمها فيليبيناس Philippines، على اسم الملك المذكور، وسكن هناك إسبنيولية، وراحت في غير سنين إلى هذه الجزيرة مراكب مع عدة قسوس ورهبان وتلمذوا أناسها وردُّوهم من الوثنية إلى إيمان المسيح.[١]

ومن هذه الجزيرة يجيء في كل سنة مركب إلى ينكي دنيا ملآن من بضائع بلاد الصين؛ فيصل من هذه الجزيرة إلى ينكي دنيا بثمانية أشهر، لكنه في العودة يرجع بثلاثة أشهر،[٢]

---

[١] لم يُصب مؤرخنا المرمى في تعيينه لزمن اكتشاف هذه الجزائر؛ فإن مكتشفها هو رويس لويس دي فيلاويس، سافر سنة ١٥٤٢ من المكسيك، وبلغ هذه الجزائر بعد شهرين، ولم يتملَّك عليها الإسبانيول إلَّا في سنة ١٥٦٠–١٥٧٠ وقد عُرفت مذ ذاك باسم فيليب الثاني ملك إسبانية.

[٢] لَمَّا توطدت سلطة إسبانية على بلاد الهند الغربي «البيروه والمكسيك» والشرقي «الهند وجزائر الفيلبين ... إلخ» أراد التجار في كل من مدن مانيلا Manille وليما Lima أن يربطوا الهندين معًا بطريق البحر؛ تسهيلًا للمواصلات التجارية، وتقريبًا للمسافات الشاسعة؛ فنجح سعيهم، وجعلت المراكب تسير بين العالمين حاملة من أمركة إلى الصين والهند الشرقي ما امتازت به من المحصولات والفضة والذهب نقودًا وسبائك؛ فتعود محملة بضائع الصين من مصاغات وحرائر وأقمشة وأبازير وتوابل وعطريات. وقد اشتهرت الجوارب الحريرية التي كانوا يأتون منها كل سنة بخمسين ألف جوز. أما مدَّة السفر فكانت تختلف مع الطريق فيقلع المركب من ميناء الكالاو Callao، في أواسط آذار متتبعًا الأرياح الموسميَّة المسماة Alizés، التي تهب من المشرق للغرب، فيبلغ مانيلا في أقل من شهرين، لكن العودة صعبة، كانت تستغرق من عشرة أشهر إلى اثني عشر شهرًا، فأرشدهم أحد الآباء اليسوعيين إلى الانتفاع من الأرياح المضادة؛ فجعلوا يخرجون في تموز من مانيلا فيسيرون نحو الشمال إلى أن يلتقوا بالأرياح الغربية التي تهب في

وأيضًا كل سنة يروح إلى تلك الجزيرة مركب من بلد سورط[٣] إلى تجار أرمن يسمون جلفالية،[٤] ساكنين في هذه الجزيرة — وهم اثنان — يأخذون مال هذا المركب ويدينونه للسبنيولية لوعدة سنة. ففي كمال السنة يجيء مركب من سورط فيأخذون من السبنيولية دراهم العام الأول ويعطونهم أيضًا لمثل هذه الوعدة الرزق الجديد. ولا يُعطى دستور لغير طوائف؛ فلا يجيء مركب إلى هذه الجزيرة سوى المركب الذي للجلفالية فقط. وكان لي نية أن أسافر مع المركب إلى تلك الجزيرة، ومن هناك أركب في مركب هؤلاء الجلفالية إلى سورط، ومن سورط إلى بلادي،[٥] لكن صدني عارض مع الرجل الذي كان ذاهبًا ليحكم في تلك الجزيرة،[٦] فطلب مني أن أدينه عشرة آلاف غرش؛ فشاورت الوزير فقال لى: در بالك لأنه مَدِين وعليه مائتا ألف غرش دينًا. فامتنعت عن الرواح، وقصدت أن أرجع إلى بلاد إسبانية.

تلك الأصقاع؛ فتدفعهم إلى شطوط كاليفورنية والمكسيك بين شهر ك١ وك٢ فيحطون في ميناء أكابولكو Acapulco في المكسيك.

[٣] نظنهُ يريد مدينة surate في شمالي مقاطعة بمباي في خليج كامباي الذي دعاهُ ابن بطوطة كنبايت، وقد وصف مدينة بهذا الاسم وذكر سعة تجارتها. أما سورط أو سورات فهي مدينة حديثة لم يكد يأتي ذكرها في كتب العرب؛ لأن اشتهارها لم يسبق أوائل القرن السابع عشر حيث أصبحت ملتقى تجارة المغول والفرس؛ فأقامت فيها الشركات الإنكليزية والأفرنسية والهولندية فروعًا مهمة، وكان فيها رسالات دينيَّة لليسوعيين وغيرهم.

[٤] يريد — على زعمنا — النسبة إلى جلفا Julfa، وهو حي أو محلة في جوار أسبهان، بناه شاه عباس في أوائل القرن السابع عشر، وأجلى إليها سكان مدينة جلفا القديمة، وسماها باسمها جلفا، وما لبثت أن أصبحت مدينة مهمة امتدت الكثلكة بين سكانها الأرمن الكثيرين، وتعددت الرسالات للرهبان اللاتين؛ فأتت بأثمار خلاصيَّة ذكرنا شيئًا منها في الجزء الأول الصفحة ٨٣–٩٢ من مجموعتنا المعنونة Documents inédits pour server à l'Histoire du Christianisme en Orient. Prix 6f. "Picard à Paris, Luzac à Londres, Harrassowita à Leipzig" 1905.

[٥] كانت المواصلات التجارية بين سورات وبغداد عن طريق العجم متتابعة، كما جاء مرارًا في الرسائل والرحلات المطبوعة وغير المطبوعة المحفوظة عندنا، ويا ليت رحالتنا عاد إلى بلاده عن طريق الفيليبين والهند والعجم، لكانت سفرتهُ غريبة لم يسبقهُ أحد إليها.

[٦] الفيليبين: جزائر لا جزيرة واحدة.

أخبار الصين والفيليبين

وذكروا لنا أن من مدة خمسين سنة لما كان بعض الكاروزين يذهبون من هذه الجزيرة إلى بلاد الصين الجواني ليتلمذوا أناسها ويرجعوهم من الكفر إلى إيمان المسيح، فالشيطان عدو الخير والإحسان ألقى في قلب ملك الصين أن يقتل جميع الرهبان الذين يكرزون هناك؛ فقتلهم وأمر بتحضير مراكب وعساكر ليسافر إلى جزيرة فيلبيناس Philippines. فلما نظر سكان الجزيرة هذا العسكر العظيم القاصد محاربتهم اعتراهم الخوف؛ لكونهم قليلين وغير مستعدين، فما لهم حيلة ولا ملجأ غير الدخول إلى الكنيسة؛ فعبروا للكنيسة وابتدءوا في التضرع والصلاة، وحملوا الجسد المقدس، وخرجوا بالزياح والصلاة إلى محاربة الأعداء؛ فبقوة الله وعدالته التي لا تتخلى عن القاصدين إليه بأمانة، هاج البحر على تلك المراكب وشتت شملها وحطمها وأبادها. ومن جميع ذلك الجيش العظيم ما خلص سوى ثلاثة عشر مركبًا، فلما سمع ملك الصين بهذا الضرر العظيم الذي أصابه حزن حزنًا عظيمًا، ومن حزنه هلك عاجلًا، وأوصى ابنهُ الكبير المتولي الحكم بعدهُ أن يهيئ عسكرًا آخر بمراكب حصينة، ويقصد محاربة تلك الجزيرة. فلما اهتم ابنه المذكور وجمع العساكر وجهز المراكب عرض لهم مثلما عرض للأولين، وبادوا أجمعين. وعرض لهذا الملك أيضًا ما عرض لوالده، ومات فقعان لحزنهِ. فخلفهُ أخوه الصغير، ولما جلس في الحكم نوى أن يهيئ عساكر ومراكب؛ فأشارت عليه والدته أن لا يضاد تلك الجزيرة لئلا يجري له ما جرى لأبيه وأخيه، بل الأفضل أن يصالحهم ويصاحبهم، ويتركهم يدخلون البلاد ويكرزون ولا يعارضهم بوجه من الوجوه. والآن في كل ثلاث سنين يجيء رهبان من إسبانية، ويعبرون للصين، ويكرزون ويتلمذون بغير مانع. وأنا كان لي صديق كان قبطانًا في تلك الجزيرة

مقدار سبع عشرة سنة؛ فلما جاء إلى ميخيكو استضاف عندي وحكى لي جميع هذه الأمور والمعاجز التي صارت في فيلبيناس. وهذا الرجل صادق بقوله، وأيضًا بشهادة الرهبان اليسوعية وغيرهم من الرهبان الذين ثبتوا تثبيتًا صادقًا واضحًا تلك المصيبة.[١]

[١] لا ندري كيف لخص مؤلفنا هذه الأخبار، ونظنهُ خلط بين أخبار الاضطهادات التي حدثت في اليابان والصين والتونكان.

جزائر ماريان

ومن مدة خمسين سنة اكتشف أيضًا السبنيولية على جزيرة قريبة من فيلبيناس وفتحوها، وكان سكانها هنود عابدو الأصنام، فلما ملكوها نصَّروا وعمدوا أهاليها، وسموها على اسم الملكة امرأة الملك فيلبه الرابع Philippe IV. وأم هذا الملك كارلوس الثاني، وكان اسمها الملكة ماريانا ده أووستريا Marie-anne d'Autriche التي هي أخت الإمبارادور ليوبولد؛ فجعلوا اسم تلك الجزيرة إيزلا ده مارياناس Mariannes. ولما كنت أنا الحقير في ميخيكو جاء مركب من فيليبيناس، وجاء معه راهبان من رهبان مار عبد الأحد، ومعهما عرض حالات إلى سيدنا البابا. وهؤلاء الرهبان جاءوا معي إلى إسبانية في مركب واحد، حينئذٍ أروني العرض حالات حتى أعينهم وأساعدهم عند سيدنا البابا، على المصيبة الذي قد صنعها قضاة فيلبيناس مع مطران هذه البلدة، وهي أن المطران المذكور تخاصم مع الرهبان اليسوعية وطلب منهم العشور؛ فما أطاعوهُ ولا أرادوا يؤدوا له ذلك،[1] فبسبب هذا أحشوا عليه «كذا» قضاة البلد، فأرسلوا تحت الليل مسكوه وحطوه في المركب، ونفوه إلى

[1] يجهل الرحالة أن اليسوعيين وكثيرًا غيرهم من الرهبان معفون من أداء العشور لرؤساء الأبرشيات، على أننا قلَّبنا كتب التاريخ فلم نجد ما ينطبق على قول صاحب الرحلة، ولربما خلط بين حادثين، جرى الأول بين اليسوعيين في المكسيك وبين يوحنا بالافوكس مطران بويلا ده لوس أنجلوس، وذلك قبل رحالتنا بأربعين سنة، فطلب العشور من اليسوعيين فلم يرضوا، وحكم لهم الكرسي الرسولي. أمَّا بالافوكس فابتعد عن مدينته، وزعم أن ذلك بإغراء المرسلين. وأخبار هذا الأمر طويلة «اطلب تاريخ الرهبانية اليسوعية للمسيو كربتينوجولي المجلد ٤ الصفحة ٦٨ … إلخ». والثاني بينهم وبين أرنان غربرو مطران مانيلا في الفيليبين، من معاصري صاحب المقالة، وقد ذُكر في تاريخه أنه دعا كهنة مانيلا إلى اجتماع فاعتذر اليسوعيون؛ فغضب المطران، ولكنه لم تطل مدة غضبه؛ فعذرهم وأعلن أسفه لما حدث، وعاد إلى ما كان

مكان بعد ثلاثين فرسخًا. وهذا المطران كان راهبًا من رهبان مار عبد الأحد، ومات ذلك المطران في النفي كمثل مار يوحنا فم الذهب. فلما وصل هذان الراهبان إلى رومية وعرضوا تلك العرض حالات المشتملة على هذه القضية إلى سيدنا البابا، وسمع البابا تلك القباحة الردية، أرسل يعاتب ملك إسبانية على هذا الفعل الذي صنعه القضاة في ذلك المطران، فلما علم الملك والديوان هذا الأمر أرسل إلى فيلبيناس وعزل أولئك القضاة من وظائفهم ونفاهم وماتوا منفيين تحت الحرم.

عليه من مصادقتهم «اطلب Historia delle Philipine p. 220 وكربتينوجولي المجلد ٥ الصفحة ٢٢ … إلخ».

الرجوع إلى أوروبة

فنتكلم الآن عن رجوعنا. ولما أرادت المراكب ترجع إلى إسبانية؛ فانحدرت من بلد ميخيكو Mejico إلى أسكلة ويراكروس Vera Cruz، وهي ثمانين فرسخًا؛ فتكلمت مع جنرال المراكب أن يأخذني إلى إسبانية، فطلب مني كروه ألف غرش مع الأكل والشرب؛ لأن قوانين هذه المراكب أنهم يكرون الأوضة ذراعين وعرضها ذراع وثلث وعلوها ذراع ونصف؛ فلما رأيتهُ طلب ألف غرش صعب علي لكن غصبًا عني رضيت، فمن بعد ثمانية أيام اجتمع رؤساء المراكب وعملوا ديوانًا ومشورة إن كانوا يقدرون أن يخرجوا من الهند ويأتوا إلى إسبانية في هذه الأشهر، ورموا القرعة لأنهم لا يقدرون أن يسافروا إلا بعد ثلاثة أشهر فجهزوا مركبًا صغيرًا مع مكاتيب وأخبار تلك البلاد، وأرسلوهُ قبلهم سبيقًا إلى إسبانية، فلما نظرت ذلك حرت في أمري؛ بسبب أن تلك الأسلكة حارة وماءها عاطل وهواءها أتعس؛ حينئذٍ استهمَّيت وركبتُ في ذلك المركب الصغير الذي أرسلوه إلى إسبانية قاصدًا السفر معه إلى جزيرة تسمى لاوانا La Havana؛ لأنها أسكلة إلى غلايين البيروه وإلى مراكب ينكي دنيا التي يقال لها الفلوتا flotte، فحصل صديق لي في أسكلة ويراكروس، وأشار علي أن أشتري حِمْلَيْ بصل يابس وصندوقي تفَّاح لأجل أرمغانات،[1] فاشتريت وعملت بشورهِ.

وسافرنا مع قدرة الله، وبعد عشرين يومًا وصلنا إلى هذه الجزيرة المذكورة لاوانا، ونحن فرحون مسرورون، وحاكم هذه الجزيرة كان أخَا الجنرال الذي أوصلني للبيروه؛ فقدمت له البصل والتفاح أرمغان؛ فتعجب وقال: كيف علمت أننا نعتاز البصل والتفاح في هذه الجزيرة؟ فإنهم إذا زرعوا البصل عندهم في الجزيرة يطلع مثل أذناب الفأر، وإذا

[1] أرمغانات: أي هدايا، وهي كلمة فارسيَّة الأصل جرى استعمالها في حلب وما بين النهرين.

تركوهُ حتى يكبر يتخ وييبس. فبقيت في هذه الجزيرة أربعة أشهر ونصف حتى جاءت المراكب من ينكي دنيا. وهذه الجزيرة هواؤها مليح وماؤها طيب وأناسها محبون، فلما أردت أخرج من هذه الجزيرة حتى أتوجه إلى إسبانية جاءني بشاكيش،[٢] عوض البصل والتفاح تسعة صناديق سكر مع مرطبانات[٣] المربى، وأنا كنت استكريت في المركب الذي كان جاء من كراكس Caracas بثلاثمائة وخمسين غرشًا، وسافرنا؛ فبمعونة الله وصلنا إلى جزيرة القاع Lucayes، فقام علينا اضطراب في البحر من عظم زيادة الريح، ودام أحد عشر يومًا، وتشتت المراكب على وجه البحر، ونحن بقينا في بكاء وعويل مع صلوات وزياحات في المراكب وندورة إلى الكنائس والقديسين. ومن بعد الأحد عشر يومًا المذكورة سهل الله وهمد عجاج البحر، واجتمعت مراكبنا التي كانت مشتتة؛ لأن في الليل يشعلون الفنارات حتى لا يتيهوا ويضيعوا بعضهم عن بعض، وأيضًا حتى لا يقربوا كثيرًا إلى بعضهم لئلا يخبط مركب في مركب وينكسروا، حينئذٍ جاءتنا ريح مناسبة فرجعنا إلى دربنا متوجهين إلى كادس Cadix، فمن بعد اثني عشر يومًا كشفنا على الأرض من فجر النهار، وكانت الريح مساعدةً جدًّا حتى في نصف النهار.

[٢] بشاكيش: جمع باشكيش أو باشكاش. ذكرها المؤلف غير مرة في مقالتِهِ، وأراد بها البخشيش الشهير في بلادنا. وبخشيش: كلمة فارسية من فعل بخشيون بمعنى أعطى وغفر.

[٣] مرطبان: كلمة فارسية يراد بها الإناء الذي تحفظ فيه الحلاويات والعقاقير وغيرها.

من إسبانية إلى رومية

دخلنا بالسلامة إلى ميناء كادس، وكانت مراكب الحرب التي لملك فرنسة راسية خارج الأسكلة، وأيضًا مراكب الحرب التي لملك إسبانية راسية قبالهم، فلما دخلنا بين هذه المراكب سلمنا عليهم بضرب المدافع فردت مراكب فرنسة وإسبانية علينا السلام، وبقي ضرب المدافع من الجانبين، وصار الدخان عليهم مثل الضباب، فدخلنا الميناء ورسينا. فثاني يوم أتانا أصحاب من البلد في سنابك، وطالعونا إلى البر؛ فأخرجت صناديقي بأمر رئيس الديوان الذي يسمى برسيدنته، من غير أن يفتحوها ويفتشوها كالعادة، فمن بعد عشرة أيام رحت إلى بلد سيويلية Séville لأخلِّص ألفي غرش من قبطان مركب كان تدينها مني ليشتري عازة مركبه، فلما وصل إلى كادس يسَّقوا على المركب وأخذوه؛ لأنه كان عليه دين لكنيسة سيويلية ثلاثين ألف غرش، فرحت أنا ادَّعيتُ؛ فحكم البرسيدنته بالحق وقال: قبل كل شيء يستوفي هذين الألفي غرش لأنه لولا هذا المبلغ ما جاءكم المركب؛ فأعطوني إياها، ورحت إلى كادس، واستكريت مع مركب هولانديزي حتى أتوجه إلى رومية، وكان معي خادمان من أولاد الأرمن، وكنت أحضرت معي من الهند أربع درَّات، وهي الطيور التي تسمى في لسان الفرنجي پاپا كاي «ببغاء» Perroquet، يتكلمون مثل الإنسان، وجبت أيضًا قنديل فضة يساوي ألفًا وأربعمائة وخمسين غرشًا، وصنعته غريبة؛ فقدمته إلى سيدنا البابا وإلى كنيسة المجمع؛ فلما رآه الكردينالية فرحوا فرحًا عظيمًا بلطافة صياغته. وفي ذلك الحين أنعم عليَّ سيدنا البابا إينوسنسيوس الحادي عشر صاحب الذكر الصالح بوظائف لم أكن لائقًا لها، والحمد لله إلى الأبد آمين.

هنا تنتهي رحلة الخوري إلياس الموصلي، وهي الصفحة المائة من كتابه، ويليه ١١٣ صفحة وصف فيها المؤلف أخبار الأمم التي كانت تقيم في تلك الأقطار قبل دخول الأوروبيين إليها،

وتاريخ كشف البيروه، وما جرى بين المواطنين والفاتحين من الحروب والمناوشات. وقد اعتمد المؤلف على عدد من المؤرخين الإسبانيين ذكر أسماءهم في تضاعيف كلامهِ أخصهم كارسيا Grég. Garcia: *Orig, de las Indias* وأكوستا Jér. d'acosta: *Hist. Gén. des Indes* وكارسيلاسو Carcilasso، وغيرهم مثل سالاصار وأنطون ده أديرا وديكو ده الباري ورودريكو لوصا وأندراوس ده لارا وهوكو كارون. وقد قابلنا بين نصهِ وبين بعض نصوص المؤرخين المشار إليهم فوجدناهُ قد اجتهد في فهم معناها وأدائه لكنه لم يدرك كيف يلخصها تلخيصًا يلذ المطالع ضامًّا المعاني بعضها إلى بعض، منتقدًا الأخبار، غثها من سمينها. وقد اخترنا مما ذكر شذرة عن بدرو ده كاندي Pedro de Candie أو الأقريطشي أحد فاتحي البيروه، وقد ورد مرارًا ذكره في تاريخ الفتح، وأثنى الكتبة والمؤرخون على تدينه وشهامته، وذهب الكاتب أنه رومي الأصل؛ اعتمادًا على اسمه، فإذا صح هذا المدَّعَى كان لأحد أبناء الشرق نصيب في كشف البيروه وفتحها، وهو شرف جدير بالذكر.

بدرو الأقريطشي أحد فاتحي البيرو

اكتشاف البيرو، بيزارو Pizaro ورفقاؤه الثلاثة عشر،
بدرو الأقريطشي Pedro di Candia

كان فرنسيسكو بيزارو من أول فتاح أمركة، اتخذ له رفقة؛ ولكنهم لما رأوا أتعاب السفر والحروب مع الهنود والجوع والعطش ... لم يرضوا متابعة السير؛ فسحب بيزارو سيفهُ وخط على الأرض خطًّا وقال: كل من يريد أن يرجع إلى باناما فليتجاوز هذا الخط. حتى يعلم من هو شجيع بينهم، فما بقي معهُ غير ثلاثة عشر نفرًا ...

فسافر هؤلاء في البحر، وبلغوا إلى مكان يسمى كركونا Gorgone، أي دوَّار الماء في البحر، فبقوا هناك زمانًا بالصبر على الشدائد والجوع والعُري وكثرة الأمراض، وظهرت رجوليتهم وحفظوا عبادة الله مثل ما يجب للنصارى الكاملين مجتهدين بالصلوات للعذراء القديسة في مسبحة الوردية، مرتلين وممجدين اسم الخالق، وكفوا عن الحلفان والتقمقم ... فصار هؤلاء الثلاثة عشر سببًا لاستدعاء الكفرة التائهين في الظلمات وعتمة عبادة الأوثان إلى طريق الخلاص ... وقوَّاهم الله في الخروج من كركونا ...

ثم وصلوا إلى أرض تدعى كابولانا Capullana، فعلم بيزارو أن في تلك الأرض يوجد ست حاكمة في تلك النواحي، وهي كريمة وسخية في العطاء، فرسم بيزارو أن يروح نيكولاوس أريوويره Nicolas de Ribera الشيخ لأنه رجل منور وصاحب إقبال، مع رفيقين معه، عند هذه الست؛ فراحوا وطلبوا منها المساعدة في النصر؛ فأجابتهم: أعطيكم

ما تعتازون من أكل وشرب، لكن لا أهبكم عساكر. فأخذوا لهم زوادة، وركبوا مركبهم، وسافروا إلى ميناء القديسة هيلانة المذكورة سابقًا ... ومن هناك بلغوا جزيرة بونا Puna ... فخافوا أن يصير لهم ضرر فتركوها ونزلوا قرب البر، وشعب تونبيز Tumbez ناظر إليهم،[1] فلما نظروا الخلق الذين يتفرجون عليهم أزيد من أربعين ألف نفس افتكر هؤلاء الثلاثة عشر نفرًا أن يجربوا بختهم ويرسلوا لهم رسولًا يطلب منهم أكلًا وشربًا بالمحبة من غير قتال؛ فاختاروا واحدًا من بينهم كان يدعى اسمه بطرس، وهو من طائفة الروم أصلًا من قريطش[2] فهجم وحده باتكال على غيرة النصرانية لابسًا الزردية وحاملًا الخنجر والسيف والبندقية، واختار له من السلاحات الروحيَّة؛ لأنه كان ماسكًا بيده صليبًا طويلًا طوله ذراع، وكان المذكور جسيمًا فأراد يجرب بخته متكلًا على قوة الصليب المقدس. فلما نظره الهنود تعجبوا من شكله ونظروا وتأملوا فيه كشيء إلهي؛ لكنهم تشاوروا أن يُفلتوا عليه سبعًا ونمرًا محفوظين هناك للملك وايناكاباك Guaynacapac. فأما بطرس القريطشي فلما شاف تلك الحيوانات طلب المعونة من السماء والنصر من الصليب المقدس ففي الحال اقتربت منه الحيوانات بوداعة من غير تشوش ولا افتراس، وحصلت قدامه عند رجليه فلاطفها كالخرفان الحليمة، ومد يده إلى رءوسها مملسًا لها، ووضع الصليب على جبهاتها؛ فصار هذا بتوفيق وأعجوبة قوة الصليب المقدس المنجي عابديه من الأعداء المنظورين وغير المنظورين؛ فلما نظر الهنود تلك الأعجوبة تيقنوا أن بطرس القريطشي هو ابن الشمس أو أنه نزل من السماء؛ فهكذا قبلوه وأدخلوه إلى هيكل الشمس الذي بناه الملك وايناكاباك جنب قلعة تونبيز حيث كان في تلك البلدة معلمون صياغ كثيرون. وحيطان الهيكل مغطاة بصفائح الفضة من غير الكنوز التي جعلها الملك أوقافًا لذلك الهيكل، وأيضًا بهائم وطيور وحيتان من جميع الأجناس مصاغة سكب من فضة وذهب، وأيضًا بساتين بأشجار، وأثمارها مصنوعة من فضة وذهب. ومن بعد ما أكرم الهنود بطرس المذكور وتفرج على جميع ذلك المال رجع إلى المركب، وحكى لرفقائه الاثني عشر عما نظر من الغنى الغزير قدره، وبما صار من الأعجوبة مع الوحوش بقوة الصليب المقدس؛ فمن تلك

[1] كل هذه الأخبار تتبعناها على كتاب رحلة بيزارو سنة ١٥٢٦ فلم يخطئ الكاتب في نقلها، (اطلب تاريخ الأسفار المجلد ١٣ الصفحة ٤٣ ... إلخ)، وقد اكتفينا هنا بالمهم منها.

[2] أقريطش جزيرة معروفة في بحر وتدعى أيضًا كندية Candie، والظاهر أن بطرس كان منها.

الساعة اتخذ له عوض السلاح صليبًا؛ لأنه هو الذي خلصه من تلك الآفات الوحشية. واتفق بيزارو معهم على أن اثنين من العسكر يبقيان في تونبيز ليتعلما اللسان الهندي ويفهما أحوال وقواعد هذه البلاد، وهو — بيزارو — مع العشرة أنفار يرجعون إلى باناما حتى يجمعوا عساكر …

الآثار النصرانية في أمركة المتوسطة والجنوبية

هذه نبذة ثانية ننقلها عن كتاب رحلة الخوري إلياس الموصلي إلى أمركة من قسمها التاريخي الذي لم ننشرهُ، موضوعها التقاليد القديمة التي لقيها الإسبانيون لدى وصولهم إلى أمركة المتوسطة والجنوبية، من صلبان وآثار وعاديات وأخبار غريبة في بابها، تذكر كلها أن رجلًا عظيمًا زارهم في الأجيال السالفة وعلمهم وتنبأ لهم بما سيكون. وقد قلَّبنا الرحلات والتواريخ ورسائل المرسلين؛ فرأينا من هذه التقاليد والعوائد شيئًا كثيرًا يكاد أن يثبِّت رأي من قال إن النصرانية اتصلت إلى تلك الأصقاع وتركت آثارًا لا تُنكَر، وإن صعب تعليل مصادرها وأزمنتها. على أن كاتبنا ذهب — وذهب قبلهُ وبعدهُ كثير من الكتبة — إلى أن القديس توما الرسول بشَّرَ بالإنجيل الطاهر في أمركة الجنوبية، ونصَّرَ عددًا من سكانها، لكن الأيام طفت على ما بذرهُ من تعاليم الخلاص فأيبستها وأبادتها. ذلك أمر لا ننكر احتمالهُ لكننا لا نجزم بحقيقتهِ؛ لضعف البراهين وإبهامها وإمكان تأويلها، بزيارة مرسل أو كاهن زارهم عمدًا أو قذفتهُ إليهم العواصف في أجيال قريبة من أجيالهم. وقد لَمَّح العلماء البولنديون إلى هذا الرأي ووصفوه بقولهم: «إن ما يُذكَر عن أخبار أمركة القديمة في هذا الشأن أقرب إلى الغرابة منهُ إلى الصدق.» (Acta Sanctorum, vol. IV Jul., p. 15: Curiosa Magis Quam Certa Proponunt) ومن ثمَّ ننشر هذا الفصل تاركين العهدة على كاتبهِ.

الفصل الحادي عشر

(يشتمل على أخبار تلميذ المسيح مار توما الرسول، وتلاميذه الذين دخلوا إلى بلاد الهند الغربية.)

نقول إن في تواريخ فرنسيسكو بيزارو فاتح هذه البلاد وضابطها يذكر أنهُ كان تصاحب مع هنود من أهلها عتيقي السنين والأيام؛ فأعلموه بالعجيبة التي كان أجدادهم وسلفاؤهم يحكونها لهم، وهو أنهُ كان جاءَهم رجلان أحدهم أشقر طويل والآخر مربوع القامة، وكانت وجوههم تلمع كالشمس، وكانوا يكرزون، وبأيديهم عكاكيز، قالوا: «وإلى الآن موضعهم عندنا معلوم، وهو يبعد عن ليما خمسة عشر فرسخًا.»

فلما سمع بيزارو بهذا الخبر أخذ الشيوخ المذكورين معه، وراح ليرى تلك الأرض؛ فأراه الهنود العلامة والحجر التي كان يقف فوقها التلميذ ويكرز، وكانت ارتسمت قدماه مطبوعةً في تلك الحجر، وأنا الفقير رأيتها بعيني. وفي جانب هذه الصخرة مكتوب بأحرف هكذا ...[١] وهذه الأحرف مع الحجر أيضًا هي مصورة في كتاب المؤرخ، وهذه هي: ...[٢] فأنا نسخت هذه من كتاب بيزارو المثبت من باقي المؤرخين بأن الهندي قال لبيزارو: ما نعرف أيش مكتوب على هذه الحجر؛ لأنَّا نحن ما لنا حرف ولا نعرف الكتابة ولا القراءَة. فلما راح بيزارو إلى ذلك الجبل تحقق كلام الهنود، ونظر هذه العلامات المرسومة في الصخرة أي أثر قدم التلميذ والأحرف، لكنهُ ما قدر يقرؤها فنسخ منها الممكن نسخهُ؛ لأن الأحرف قد سافت من كثرة الأيام.

وبعد ذلك جاءَ أسقف إلى بلد كيتو، وقدَّس يومًا قداسًا كبيرًا بالتاج والعكاز، كالعادة المختصة بالأساقفة والمطارنة؛ فلما رآه الهنود بذلك الطقس والقسقال[٣] سألوا قسوس الأسقف مستخبرين إن كان هذا هو تلميذ[٤] لأن لباسه كلباس التلاميذ المصورين عندنا في مساجدنا على الحجر، والطقس مثل هذا الطقس، واللبس كهذا اللبس بعينهِ، وأيضًا هكذا كان يقدس هذا التلميذ الذي كان يسمى توماز الذي حكى لنا أجدادنا عنه بأنهُ كان في

[١] بياض في الأصل.

[٢] بياض في الأصل.

[٣] القسقال لعلهُ أراد صلوات الفرض المعروفة بكلمة ܩܘܫܐܐ.

[٤] يريد بالتلميذ الرسول.

هذه البلاد، وبعد ذلك ارتحل من عندنا متوجهًا إلى الشرق، وما عاد رجع، لكن نياشينهُ بقيت عندنا.

وأيضًا يشهد المؤرخ كومارا Gomara وكرسلاسو Garcilasso في تواريخهما بأن هذا كان القديس مار توما؛ لأن الروح القدس كان يرفعهُ وينقلهُ من موضع إلى موضع وإلى أي مكان كان يقصد، وراح إلى بلاد هند الشرق في بلد تسمى كرامينا Caramine ومالابار Malabar، ويومئذ يسمونها ميلابور في هند الشرق؛ مثلما قال القديس كريسوستيموس (فم الذهب) وسفرونيوس والقديس جيرونيموس: إن مار توما الرسول عمد ثلاثة ملوك، وهم الملوك الذين ذكرهم في كتابهِ المعلم قيصر بارونيوس، قائلًا إنهم كانوا حاضرين لاستماع كرز مار توما، وكانوا من الكلدانيين؛ مثلما أثبت ذلك المؤرخ كلوديانوس في كتاب تواريخ الشرق في زمان الملك إسكندر بن فيلبس الماشيدوني.

ويلي هذا الفصل خبر تنصُّر أحد ملوك الوطنيين في بلاد البيروه سنة ١٥٦٣، ثمَّ عاد الكاتب إلى روايتهِ في آثار النصرانية القديمة قائلًا:

ولنرجع في قولنا إلى تلك الصخرة التي كان يكرز عليَّها التلميذ كما ذكرنا سابقًا، ونياشينها مفاتيح حديد ومرساة المركب، فالهنود ما كانوا يعرفون أيش هي المفاتيح ولا مرساة المركب ولا الأحرف، فلما دخل السبنيولية إلى هذه البلاد ووضعوا أبوابًا بمفاتيح حديد، ورأى الهنود مرساة المركب وأحرف الكتابة فهموا النياشين؛ وذلك أن التلميذ ما قدر يرجعهم إلى إيمان المسيح فترك عندهم مفاتيح مار بطرس علامةً ودليلًا بمجيء النصارى حتى يبشروهم بإيمان المسيح. وكان الهنود يعبدون تلك الصخرة، فجاء وكيل مطران ليما، وخرب الأحرف التي كانت حولها، وكان عند رأس الصخرة صليب وهي يومئذ في جانب النهر المسمَّى كالانكو، فلما راح الوزير برنجي أسكيلاج — أي الصدر الأعظم القديم، ومطران ليما الذي اسمهُ توبي، والخوري أرناندو معلم اللاهوت وبعض معلمين حققوا وثبتوا بشهود وعدد من مشايخ الهنود ومن جميع تلك التخوم. وكان الهنود يسمونها صخرة التلميذ مثلما أخبرهم أجدادهم، وإلى الآن يسمونها هكذا.

ثم أخبروا الوزير بأن في قرية أخرى تسمى كولاناده لاميا من تخوم كاخاتامبو Caxa-Tambo التي تبعد تسعة أيام من بلد ليما توجد صخرة أخرى طُبع عليها قدمان وعكازة، وهذه الصخرة تُسمَّى «في كولا»، ولها وارث قد استورثها من أجداده، فقال الهنود: إن أجدادنا كانوا يسمونها صخرة التلميذ، ونحن إلى هذا الحين نسميها هكذا، والذين كانوا يقفون على هذه الصخرة كانوا شخصين.

وبعد أن مات مطران ليما وجاء مطران آخر عوضهُ واسمه توريبو ماكرو Turibo Magro الذي قونَنَتْه الكنيسة قديسًا، وجعل يزور كنائس مطرنتهِ وأبرشيته كعادة المطارنة والأساقفة، حينئذٍ أعلموه عن صخرة أخرى في بلاد چاچاپويس في قرية تسمَّى كوليناب، وكان الهنود يوقرونها أعظم التوقير، فسألهم عن ذلك فقالوا لهُ إننا سمعنا من أجدادنا أن هذه الصخرة من قديم الزمان، كان رجلان، أحدهما أشقر لحياني، وكان يقف على هذه الصخرة ويكرز، ولما كان يصلي كان يبرك على ركبتيه ويشبح ذراعيهِ وعيناه شاخصتان إلى السماء، وفي مسجدنا العظيم صور أجدادنا من حجر تراهم يشهدون بذلك. فلما سمع المطران ذلك القول جثا على ركبتيه يزحف زحفًا، وقدم إلى موضع أقدام التلميذ وقبلها، ومرَّغ وجههُ عليها، ومن بعدهِ الكهنة وباقي الشعب فعلوا ذلك باحترام عظيم، ثم أمر المطران بعمارة كنيسة فوق تلك الصخرة ورسمها، وجعل اسمها كنيسة التلميذ إلى يومنا هذا.

وأيضًا في زمان فرنسيسكو بيزارو فاتح هذه البلاد والإقليم الرابع؛ أعني البيروه، في سنة ١٥٣٧، كان أرسل الملك معلمًا كاتبهُ اسمهُ دون أوغسطين ده صاراتي Augustin de Zarate حتى يكتب ويحرر مدخول المملكة في كل بلاد البيروه، فهذا يذكر في تواريخه أنهُ لما كان في تخوم كيتو دخل يومًا إلى بيت الأصنام فوجد في هذا البيت مصورًا على حجر تاج أسقف وعكازًا وبدلة القداس، فسأل الهنود عن هذه النياشين، فقالوا لهُ إن من قديم أجدادهم كان أتاهم رجل أشقر يسمى تلميذًا، وكان رجلًا حكيمًا، ويوجد على هذا الجبل علامة موضع رجليهِ عكازتهِ، وكتابة بأحرف لا نعرف أيش تأويلها. فهذا المذكور أوغسطين ده صاراتي يقول في تاريخه أنهُ هو بعينه شاهد ذلك في بيت مسجد الأصنام في تخوم كيتو.

وألحق المؤلف هذا بأخبار مملكة البيروه قبل دخول الإسبانيين إليها، ووصف عاداتهم في دينهم ودنياهم، إلى أن قال:

وفي جزيرة تسمَّى كومانا قريبة لأرض البيروه يذكر المؤرخ كومارا بأنَّ في بيوت آلهتهم كانوا يعبدون صليبًا بين الأصنام، فقالوا: هذا الصليب عندنا موقر ونخزي به كل الأعداء المنظورين وغير المنظورين لما يظهرون لنا في الليل، وإذا عرض للأطفال شيء من ذلك نضع عليهم الصليب فيبرءون. وهؤلاء الهنود ما كانوا يعرفون أيش هي خاصية الصليب؛ لأنهم كانوا قد نسوا تعليم الرسل، وكان الشيطان يشغلهم بالملاهي الدنيوية واللذات الجسدية.

وأيضًا في جزيرة كوذميل Cozumel قرب بلاد ينكي دنيا يقول المعلم الكبير كومارا، والراهب مبارك من طائفة مار أوغسطينوس: لما دخل المركيز كورتين فاتح تلك البلاد إلى هذه الجزيرة رأى حوشًا واسعًا محاطًا بكلس، وفي نصف ذلك الحوش صليبًا منصوبًا طوله عشرة أشبار كانوا يعبدونه قائلين هذا نيشان إله الطوفان، وإذا انحبس المطر كانوا يجتمعون حولهُ، ويعملون لهُ زياحًا وطلبة طالبين المطر، ففي الحال كان يمطر عليهم. وهذه الجزيرة كانت مثل القدس للهنود، وقد حفظوا تذكار التلميذ الذي بشرهم، وكرَّموا الصلبان لأنهم قشعوا عجائبها ومنافعها؛ لأن التلميذ كان يعلم بإلهام الروح القدس أن بعد أيام وزمان سيدخل المسيحيون إلى هذه الأراضي؛ فلأجل ذلك السبب وضع هذه النياشين كعلامة.

يذكر أيضًا المؤرخ أنه كان في تلك الجزيرة هندي يدَّعِي النبوَّة اسمهُ جيلانكاكاس Chilon-Combal، وكان قد تنبأ عليهم أَنْ عن قريب يأتيكم أناس لحيانيون بيض فاقبلوهم بصلح وسلام، وهم أصحاب هذا الصليب الذي تركهُ لنا التلميذ توما، واسمهُ مكتوب أيضًا على صخرة في بلدة تسمى جونتالس. وهذا الصليب أخذهُ مرَّة الكفرة ورموه في النار مدهونًا بالزفت والقطران حتى يحترق، فبقيت النار تشتعل ثلاثة أيام وما احترق، فلما عاينوا هذه العجيبة آمنوا به وحفظوهُ عندهم إلى حينما دخل السبنيولية إلى بلادهم. فلما سمع أسقف واخاكا بتلك العجيبة أرسل قسوسًا ليحضروه إلى الكنيسة فصعب على الهنود أخذهُ وتمرمروا قائلين: هذه ذخيرة أجدادًا فكيف أنتم تأخذونه من عندنا؟! فجعل لهم الأسقف صليبًا عوضًا عنه ووضع الصليب العجيب في كنيسة بلد واخاكا،[٥] وأنا الفقير قد رأيته بعيني.

وقال الراهب المعلم غريغوريوس كارسيا في تاريخه: لما فتحت هذه البلاد حكى له الهنود عن هذا الصليب بما كانوا سمعوا من أجدادهم السالفين بأن هذا الصليب كان حامله التلميذ توما وماشيًا على البحر برجليه كما نمشي على الأرض.

وفي بلد جيابا وجدوا في يد أحد أكابر الهنود كتابًا استورثهُ من أجدادهِ فيهِ صورة الخليقة والثالوث الأقدس والعذراء في ثياب من زي نساء الهنود، فجمع أسقف هذه البلد برتلماوس دي لاس كازاس مجمعًا من الهنود؛ ليتحقق منهم إثبات القول عن مار توما

[٥] اطلب هذه الأخبار في كتاب رحلة غريجالفا Grijalva سنة ١٥١٧ (تاريخ الأسفار المجلد ١٣ الصفحة ٢٤٥ ... إلخ).

الرسول فقالوا له: جاءَ عندنا رجل طويل القامة لهُ ذقن، وكان لابسًا عليه تونيكًا — أعني قميصًا طويلًا إلى الكعب — وفي رجليه چاروخ[٦] وملحفًا بازار، وشعر رأسه طويل. هذا الذي حكاه لنا أجدادنا.

وفي سنة ١٥٥٣، يذكر المعلم الراهب بادره أندراوس ده لارا رئيس رهبان طائفة المرسي؛ أعني ستنا مريم الوهيبة، كان في بلاد چيلي Chili ودخل إلى بلدة كانت للهنود تسمَّى اليوم صانتيا كوده چيلي، فحكى لهُ مشايخ الهنود بأنه من قديم جاء إلى أجدادنا رجل طويل أشقراني لهُ ذقن وشعر رأسهُ طويل، وكان اسمهُ توما، واليوم عندنا واحد من الأكابر اسمهُ توما، وكل عيلته يدعون بهذا اللقب من زمان مار توما، ويومئذ يسمونه بارون توما. وأروهُ الصخرة التي كان يقف عليها يكرز، وقد انطبعت علامة دوسات رجليه في الصخرة.

ويذكر المؤرخ صاروسانوا قائلًا: لما كسبوا هذه البلاد رموا قرعة على الأراضي ليتقاسموها فطلع لقبطان اسمه خوان ده بورسيل باريليا في القرعة عقبة، وكانت هذه العقبة لأحد الهنود العاصين؛ فعمَّر هناك برجًا وأمر أن يقطعوا كل الأشجار والحرش الذي في تلك العقبة، فوجدوا مغارة ودخلوا إليها؛ فرأوا صليبًا طوله ستة أذرع وليس قويًّا غليظًا، واقفًا على ثلاث صخرات صغيرة ومغروسة به ثلاثة مسامير من خشب بصناعة لطيفة. ويقولون إن هذا الصليب عمل يد الرسول مار توما، فلما رأى الرجال ذلك غُشي عليهم بغتة، وقالوا إن هذا نزل من السماء؛ فاجتمع الهنود وحملوا الصليب على أكتافهم، وعلقوه في موضع عالٍ في تلك الأرض، وزينوه بالزهر وأغصان النخل، فلما جاء القبطان المذكور وسمع ذلك أخبر حاكم تلك النواحي؛ فقام الحاكم مسرعًا وأتى مع جمهور وخلائق، وحقق ودقق من الهنود ومن كتب ملكهم؛ فأوقفوه على جميع ما حكى لهم أجدادهم من الزمان القديم. حينئذٍ صعد الخلائق قاصدين المغارة ببكاء ونحيب؛ فوجدوا في المغارة صخرة طويلة ممتدَّة على الأرض طولها ثلاثة أذرع ومطبوع على تلك الصخرة نصف جسد التلميذ أي جانبهُ الواحد؛ لأنها كانت فراشًا له؛ حينئذٍ فرحوا فرحًا عظيمًا شاكرين إنعام السيد المسيح الذي أظهر لهم ذخيرة تلميذة ورسوله توما. حينئذٍ أخذوا الصليب ونقلوهُ إلى البلد ووضعوه على امرأة كانت في المنازعة؛ ففي الحال شُفيت من مرضها، وثاني يوم صار مخاصمة بين اثنين من الجنود، فالواحد ضرب رفيقهُ ثلاثة خناجر قاتوليَّات، فطرحهُ على

[٦] الچاروخ: فارسية: النعل الغليظ.

الأرض ميتًا؛ فأسرع الناس عاجلًا إلى الصليب، ونحتوا منهُ قليلًا وسقوا منه ذلك القتيل، فللحال نهض فاتحًا عينيه ومتكلمًا، وثاني يوم خرج طيبًا سليمًا وعلامة الخناجر بقيت في جسمه. وأيضًا في تلك الأيام صار عليهم مطر عظيم ثلاثة أيام مع ثلاث ليالٍ، حتى من عظم ذلك السيل الزخم طافت الأنهر والأودية وأخذت أشجار الصنوبر من الجبال، ونزلت بها منحدرة إلى قلعة البلد؛ فلما نظروا ذلك خافوا وارتعدوا؛ لئلا يكون طوفان ثانٍ، فاجتمعوا وأخرجوا ذلك الصليب بزياح وأمانة كاملة؛ فللوقت رجعت المياه وتصرَّفت؛ فتمَّت تلك الأشجار والخشب راسخة على الأرض. حينئذٍ أخذوا تلك الأشجار والخشب الصنوبر، وعمروا بها كنيسة على اسم صليب ذلك التلميذ السعيد مار توما الرسول.

وأيضًا في بلد قريبة من مدينة الكوشكو التي كانت تخت ملك الهند وجدوا في مكتبخانة الملك مؤرخًا أخبار مثبوتة من كتبة ملوك الهنود القدماء الذين كانوا يكتبون الأخبار والأحوال بتصاوير ونياشين لأنه لم يكن لهم حرف، والمعلم كوسطا Acosta يذكر في تواريخه على الهند عن مار توما، والبادره غريغورس كارسيا يذكر عن الدنيا الجديدة، ويثبت سياحة هذا الرسول، وأيضًا المعلم قيصر César Baronius في كتابه الأول في الفصل العشرين حقق وثبت كرازة هذا الرسول في تلك البلاد، وفي تواريخ دون استيفان ده لاصار في كتابه الثاني في الفصل الثالث يذكر المعجزات التي صنعها التلميذ في بلاد البيروه، والمؤرخ كارسلاسو يذكر كذلك في كتابه الأول في الفصل الثامن عشر، وأيضًا المعلم البادري رودريكو لوصا عاش زمانًا طويلًا في الهند، ويذكر في تواريخهِ كذلك وأيضًا دون ديكوده البرس والمعلم أنطونيو ده أدبرا. جميع هؤلاء المعلمون يخبرون في تواريخهم عن تلمذة هذا القديس مار توما الرسول.

وأيضًا ذكر المعلم كومار في كتابه أن مار توما الرسول دخل على شعب هنود في قرية بونا، وكرز عليهم إيمان المسيح، وزرع في قلوبهم كلامًا روحانيًّا لأجل خلاص أنفسهم، لكن المارد الشقي كان يقسِّي قلوبهم ويزرع زوانه في حقل المسيح؛ فأشار عليهم أن يحرقوا القديس بالحياة؛ فاجتمع قومٌ من الهنود وائتمروا على قتله، فلما راحوا إلى منزله رأوهُ راقدًا، فجمعوا حطبًا وقشًا يابسًا وحوطوه حولهُ وأضرموا النار؛ فالتهبت واشتعل ذلك الحطب والقش بشرارة عظيمة، فالهنود لما رأوا النار التهبت باضطرام ما طاقوا القرب إليها لشدة حرارتها بل صاروا متأخرين من بعيد يتفرَّجون، والقديس كان قاعدًا براحة ورياضة، والشيطان يحترق أمامهُ في تلك النار. ثم خلص اللهيب وهمدت النار وصارت رمادًا، فالقديس ما احترق منهُ ولا خيط، وما تدخنت له ولا شعرة واحدة من جسدهِ، بل خرج إليهم ببشاشة وحلم من غير تألم ولا كدر وبدأ يكرز عليهم؛ فالهنود حارت عقولهم

وطاشت أفكارهم من ذلك السر العظيم. حينئذٍ رحل من تلك القرية ودخل إلى قرية أخرى تسمى جاكوتيو، وهذه القرية هي بساحل بحيرة، وطول هذه البحيرة ثمانون فرسخًا عدَّيت عليها أنا الحقير.

فأما الهنود الذين نظروا المعجزة، فخرجوا ليودعوه، فبينما هم في البرية يرافقونهُ، وإلا صار عليهم في تلك الساعة عجاج وزوابع عاصفة وغيم مظلم ورعد مع بروق وحجارة خشنة منحدرة من الجو مثل زخ المطر مع زواعق متضاعفة جدًّا؛ فارتعش الهنود وخافوا، وأخطر الشيطان ببالهم أن ذلك انتقام منهم من أجل الذنب الذي صنعوه بمرافقتهم لهذا التلميذ؛ فقام حينئذٍ التلميذ القديس، ورفع عينيه ويمينه ورسم إشارة الصليب مباركًا باسم معلمهِ يسوع المسيح مخلص العالم على تلك الغيوم المعتمة والعجاج العاصف والرعد الفزع؛ ففي حال الوقت هدأَت الدنيا، وغاب كل ذلك، وتحول إلى نهار منور وفرح.

فالشرير اللعين عدو الخير والصلاح، انحمص مقهورًا، وأشار على أهل قرية جكويت، وهو المكان الذي كان التلميذ ذاهبًا إليه ليكرز، أن لا يقبلوه بل يقتلوه، فأولئك الشعب ما راموا قتلهُ بل ربطوا يديه ورجليه، ووضعوه على كليكة صغيرة من خشب، وأرخوه في تلك البحيرة قائلين نتركه يموت في هذه البحيرة خير من أن نقتله. ففيما هم مجتمعون على ساحة البحيرة يتفرجون بما يتم بهذا القديس، وإلا نظروا سيدة نزلت من السماء مشرقة كمثل نجمة، وفائقة الحسن والجمال؛ فنزلت إليه وفكت رباطات يديه ورجليه، وسرَّحته لناحية البحيرة. ويقول المؤرخ بأن الشفيعة مريم العذراء انحدرت من السماء وخلصت القديس توما.

والذي ذكره المؤرخون أعلاه في كتاباتهم عن عجائب هذا الرسول ما استطعنا أن نؤرخهُ كلهُ في كتابنا هذا المختصر، فأخرجنا البعض وانتخبنا البعض من كتب تواريخ المعلمين السبنيوليين المثبتة من ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي الذي يسمى في لسان السبنيولي الإنكيجيسون Inquisicion.

(تم كتاب الرحلة.)


هنداوي